الى القارئ

الأمانة ... الأمانة ... يا أمين !

بقلم : البشير بن سلامة

طلعت علينا فى هذه السنوات الاخيرة نزعة جديدة تتمثل فى انصراف نخبة من المثقفين العرب عن الكتابة باللغة العربية واختيارها اللغة الفرنسية أداة للتعمق فى القضايا السياسية والحضارية التى تهز العالم العربى ٠ وهى نزعة فى الظاهر محمودة لانها تعرف جزءا من العالم الغربى بواقع المجتمعات العربية الذى بقى يكتنفه الغموض والالتباس ويناله من المغالطات والاستنتاجات السطحية ما يعرض مصالحه الى الضياع والاستهتار بها (*) ٠

ولكنها ظاهرة خطيرة ـ اذا تفاقمت ـ لانها من جهة تترك فراغا فى الساحة العربية فلا يجد جمهور المثقفين العرب من يغذيهم بالتحاليل العلمية المستحدثة والمفاهيم العصرية المستجدة كما فعل اجدادهم وآباؤهم أثناء النهضة الاولى والثانية وحتى فى الخمسينات مع البعثيين والمناوئين لهم اللهم إلا ما تجود عليهم وسائل الاعلام الرسمية بحكم وظيفتها النوعية من معلومات وثقافة هى أقرب من التبسيط والتعميم منها الى العلم والعمق والمنهجية العلمية ٠

(*) من الاسماء التى يمكن ذكرها ، هشام جعيط ، محمود حسين ، سمير أمين (أو حسن رياض) ، مصطفى فهمى ، جورج أنطونيوس ، فؤاد رؤوف ، عبد الله العروى وغيرهم ٠٠٠

صورة الغلاف للفنان عبد العزيز القرجى ٠

وهى ظاهرة خطيرة أيضا لانها تعطل من جهة أخرى اللغة العربية عن احتضان هذه المفاهيم الجديدة وتعود النخبة العربية على التواكل على ما يستنبطه الغير فى لغته بجهده ونتيجة عصارة عقله انطلاقا من واقعه ودرجة الحضارة التى وصل اليها بينما المنطق وطبيعة الاشياء يفرضان على هذه النخبة المطلعة على أحدث الفلسفات والتحاليل العلمية أن تطوعها فى لغتها الأم فترقيها وتثريها وتخضعها الى الواقع العربى فتصير جزءا منه لصيقا به ٠

إذ من أقدر من هذه النخبة على الرفع من مستوى العربية لو شمروا على ساعد الجد ورجعوا مع كتابتهم بالفرنسية الى مخاطبة الجماهير العربية المثقفة باللغة العربية الفصحى القادرة على استيعاب كل المعانى العلمية والمفاهيم الفلسفية والاقتصادية العميقة ؟

وليس فى عزمى تقصى أسباب هذه الظاهرة ودرجة مشروعيتها وظهورها بعد إفلاس الناصرية لان ذلك قد يجرنى الى افتراضات يطول شرحها خاصة وأن الموضوع الذى أريد معالجته فى هذا المقام لا يسمح بالاتجاه نحو هذه الوجهة ٠ لهذا سأترك الخوض فى هذا الخضم الى فرصة أخرى ٠

من هذه الكتب التى تسنى لى قراءتها فى هذه الايام كتاب « الأمة العربية : القومية وحروب الطبقات » لسمير أمين (*) وسمير أمين هو عالم مصرى مبرز فى العلوم الاقتصادية طوح به المطاف الى داكار ليشغل ابتداء من سنة 1970 وظيفة مدير بالمعهد الافريقى للتنمية الاقتصادية والتخطيط بعد أن عمل بالادارة المصرية ودرس فى جامعات بواتيى وفنسان « الشهيرة » بفرنسا وداكار ٠

ويتلخص الكتاب فى أن العالم العربى لم يكن ، قبل حلول الاستعمار ، اقطاعيا بل كان « مجرد مجموعات اجتماعية يربطها نوع من الانتاج الخاضع للاتاوة الذى تقوم فيه الروابط التجارية الخارجية والداخلية بدور كبير ٠ فكانت الوحدة العربية ثمرة تاريخية لاندماجها فى التيار التجارى اذ أن الطبقة الاجتماعية التى تولت القيام بهذه الوحدة هى طبقة التجار المحاربين ٠ ولم تقو فيما بعد الطبقات المهيمنة المتوالية من البرجوازيات المتعددة اثناء الفترة

(*) Samir Amin, la nation arabe, nationalisme et luttes de classes, éditions de minuit, 1976

الامبريالية على صنع الوحدة العربية : من ذلك أن البرجوازية الصغيرة التى لم « تنتحر » من حيث هى طبقة خلقت فى صلبها برجوازية دولية غارقة فى التبعية كلما قادت الحركة المعادية للامبريالية » ٠

والكتاب الى ذلك يحلل مراحل الحركة القومية من عهد النهضة فى القرن التاسع عشر الى التيارات الناصرية والبعثية ويتصور للعالم العربى مصيرا لا يخرج عن ثلاثة أوجه فاما أن يكون نظاما استعماريا جديدا قوامه التفرقة العربية أو أن يكون عالما عربيا مربوطا بالنظام الامبريالى أو أن يخضع الى تغيير اشتراكى جذرى ٠

على كل فهذه خلاصة مقتضبة تشير الى أهم ما تناوله الكتاب من موضوعات ولست فى نيتى أن أناقش صاحبه فى « فقهه الماركسى » الى حد « اللغوجة » فى بعض الاحيان لان ذلك قد يستهوى بعض الطلبة ويذهب بألبابهم بعد ان أكلهم الجوع الايديولوجى ونال من توازنهم اعتقادا منى أن الماركسية ـ وإن بلغت من مستوى التفكير القمة فى الفكر الغربى انطلاقا من تحليل الواقع الغربى السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى ـ فانها ليست من العلوم الصحيحة الصالحة لكل زمان ومكان وليست قادرة على تحليل أوضاع العالم العربى لان ذلك لا يمكن أن يكون حسب ظنى الا اعتمادا على تفكير ابن خلدون بتطويره واثرائه وتعصيره وتنظيره بالماركسية وغيرها من الفلسفات والايديولوجيات ٠

ولست أنوى مناقشته أيضا فيما أصدره من احكام على الاحزاب الشيوعية العربية لانه أعرف بها ربما منى وقد أوافقه على ذلك فى خصوص فرع الحزب الشيوعى الفرنسى فى تونس وإن لم يذكر بالذات «الحزب الشيوعى التونسى» الذى قام بنقده الذاتى سنة 1955 ونشره بين الناس ٠

كما أننى لن أتعرض الى اغفاله العامل الدينى الذى كان محركا من محركات المجتمع العربى الاسلامى والذى خلق المعجزات فى ظروف لم تكن طبيعية وأبقى على الشخصية العربية الاسلامية عندما اتجهت النية فى العهد الصليبى ثم الاستعمارى الى محقها ٠

وليس فى نيتى كذلك أن أقارعه الرأى فى المكانة التى يعطيها لمصر فى الامة العربية نظرا الى أنه مصرى وملم بواقع بلاده ٠ وليس من شك فى ان مكانة

مصر عظيمة في العالم العربي ولكن الذى لا ترضاه الامانة العلمية هو أن ينزع من البلدان العربية الاخرى بعض الخصائص التى تشترك فيها مع مصر ويعمد الى تزييف التاريخ وتحريف الواقع خاصة فى الميدان الذى أعرفه المعرفة الصحيحة والمتعلق بالحركة الوطنية التونسية وتاريخ تونس ٠

لذا فانى سأختار فى « حديثه » عن تونس عينات من الحقائق التى ظنها بديهية ولست أدرى من أى الكتب استقاها ولا من أى « الافواه » اختطفها لأدلل على أن هؤلاء ــ الذين قد يوهمون الناس بأنهم ينطقون بالحكمة ويصدعون بالرأى العلمى الصحيح النابع من بعض الفلسفات القديمة التى تجاوزها الزمان أو كلت عن أن تسع كل مكان ــ يخدعون أنفسهم ويوقعون قراءهم فى الاخطاء الفاحشة وفاء « للقوالب » التى آمنوا بها و « السور » التى حفظوها ٠

يقول سمير أمين مقارنا الحركة الوطنية الجزائرية والحركة الوطنية فى المغرب وتونس : « إن القطيعة الطويلة الامد من سنة 1850 الى سنة 1945 بين الفترة القديمة للحركة القومية الجزائرية وبين ميلادها فى العصر الحاضر لم نوجد فى تونس والمغرب اللذين تم استعمارهما فى فترة لاحقة ٠ وهذا يفسر أن الحركة الوطنية العصرية فى هذين البلدين لم تكن لها سوابق شعبية مثلما هو الشأن فى الجزائر ، ففى البلاد التونسية لم تكن الحركة الوطنية التى ترعرعت فى الثلاثينات فى أوساط البرجوازية والبرجوازية الصغيرة لتحدث نفسها باستيعاب كل الطبقات بل هى ستبقى برجوازية ، معتدلة ورمزها فى ذلك هو بورقيبة الذى بقيت متعلقة به منذ انبعاثها ٠ ولما أحست هذه الحركة انها ستتجاوزها ثورة جماهير الفلاحين سنة1954 أمسكت بمقاليد الامور بفضل سياسة التنازلات التى سنتها فرنسا وأفضت الى الاستقلال سنة 1956» ص 84٠

أخذت هذه العينة من الكتاب الواصفة لتاريخ تونس المعاصر حتى يتفطن كل تونسى أولا ثم كل عارف بالحركة الوطنية التونسية الى الخطأ الذى وقع فيه سمير أمين رغم أن المؤلفات المكتوبة بالفرنسية والمتعلقة بتونس تعد بالعشرات ، فهو لا يريد أن يميز بين الحزب الحر الدستورى القديم الذى انبعث فى العشرينات والحزب الجديد الذى أسس سنة 1934 لانه تعمد بالضبط حشر الحزبين فى بوتقة واحدة لان الاول هو بورجوازى حقيقة بحكم الحركات التى سبقته ولم تشمل الجماهير الشعبية رغم أن هذه الحركات لها سوابق شعبية ما فى ذلك شك ٠ والثانى أى الحزب الجديد هو بالعكس استوعب كل الطبقات وخاصة الشعبية من فلاحين صغار وعمال ٠

ذلك أنه لا يمكن للعالم الحصيف أن يتغافل عن ثورة ابن غذاهم سنة 1964 وما تبعها من تنكيل سلطات الباى بفلاحى الساحل التونسى خاصة ، وبقاء هذه المأساة عالقة بأذهان احفاد من تجرعوا عذاب الجنرال « زروق » • وإنه ليس من شك فى أن حركة خير الدين التونسى قبل انتصاب الحماية وحركة الشبا بالتونسى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانتا من نتاج هذه الثورة الشعبية العارمة التى هزت العرش الحسينى هزا • ولكن رغم ما اتصفت به هاتان الحركتان وبعدهما حركة الحزب القديم من وطنية فقد بقيت كلها منحصرة فى طبقة معينة •

ولكن الذى لا يمكن أن ينكره أى مؤرخ منصف مهما كان اتجاهه ومنحاه هو أن الحزب الجديد حزب شعبى لم يعتمد فقط على أهل المدن والقبائل بل اعتمد كذلك على الفلاحين فى الساحل التونسى والوطن القبلى خلافا لما ادعاه سمير أمين من أن مصر تكاد تكون هى البلاد الوحيدة فى العالم العربى التى لها طبقة كبيرة من الفلاحين الصغار• لهذا فان الحزب الجديد جمع حقيقة أهل المدن والقبائل سواء التى كانت فى الجنوب أو الوسط التونسى ولكنه استوعب خاصة الساحل التونسى والوطن القبلى الذى تكاد تكون انحصرت فيه ، بعد الحروب والكوارث وزحفات بنى هلال وسليم وغيرهما ، طبقة الفلاحين الصغار (paysannerie) وليس من الغريب أن يتأسس الحزب الجديد فى قصر هلال إحدى قرى الساحل النشيطة ويضم من الثوار الفلاحين وعمال المدن •

وإن هذه الحركة هى التى قادت المعارك ضد الاستعمار بادماجها كل أصناف الشعب التونسى وقامت بالمعركة الحاسمة ابتداء من جانفى 1952 قبل قيام الثورة فى مصر (ليست هناك أية علاقة بين الثورة فى تونس وبين ثورة الضباط الاحرار فى مصر اللهم إلا أثناء الفتنة اليوسفية فى أواخر سنة 1955 وأوائل سنة 1956) ناهيك ان فرحات حشاد زعيم الحركة النقابية هو الذى قاد فى الفترة التى سبقت مقتله ، المقاومة الشعبية بعد أن اعتقل الاستعمار قادة الحزب الجديد البارزين ، وبعد أن قام بزيارة الحبيب بورقيبة فى مقر إقامته الجبرية بطبرقة •

ثم إن المقاومة المسلحة فى تونس كانت تأتمر باوامر الحزب الجديد وحتى عندما أذن الحبيب بورقيبة بالقاء السلاح أثناء المفاوضات سنة 1954 فان عددا كبيرا من الثوار لم يسلموا أسلحتهم واختفوا باذن من قائد الحزب وذلك احتياطا لما عساه أن يحدث عندما تفشل الطريقة السليمة •

والذى أريد أن أؤكده « للعالم » سمير أمين هو أن اعتدال بورقيبة ليس معناه أنه كان بمعزل عن الطبقات الشعبية وأنه رضى بالتنازلات خوفا من أن يتجاوزه الثوار بل اعتداله كان سببه تجنيب الشعب التونسى الكوارث • ولم يمنعه هذا الاعتدال من أن يقوم بثورة شاملة عند تقلده الحكم بتحريره المرأة وتوحيده القضاء وتعصيره وتعميم التعليم وتوحيده وبعثه المؤسسات الدستورية الديمقراطية العصرية وغيرها • مما جعل الشعب التونسى يقفز قفزة عملاقة من العصر السحرى الاسطورى الى العصر العقلانى التقدمى •

وإن الذى بسطته ليس من قبيل الدعاية السياسية بل هو الحقيقة التى لا غبار عليها والتى لا يمكن لسمير أمين أن يقتنع بها الا اذا نزع عنه غشاوة القوالب التى يتصرف فيها والمفاهيم التى يريد تسليطها على احداث ليست من نوعها • فليرتكز أولا وبالذات على الحقائق التاريخية والوقائع الموجودة الآن فى كتب أشهر المؤرخين الفرنسيين ثم بعد ذلك ليحاول التفسير حسب « سوره » و « آياته » • أما ان ينطلق من الاخطاء فان ذلك لا يمكن أن يكون الا تحريفا للتاريخ ورضى بالزيف وتعمد المغالطة •

لهذا فان مثل هذه الكتب التى تظهر وكأنها علمية وتتصرف فى حصيلة من المفاهيم والمصطلحات التى لا تدل فى الغالب على واقعنا ، خطيرة على القراء وخاصة على شبابنا • وانى اذ أوردت هذه الفقرة فقط فليس معنى هذا أنها هى الوحيدة بل الكتاب كله مشحون بمثلها فيما يخص تونس والبلدان العربية الاخرى •

ولا يسعنى إلا أن أناشد سمير أمين وأمثاله حتى يكفوا عن هذا التزييف ويتجهوا الى الجماهير العربية المثقفة لمخاطبتها بلغتها إذ أن المغالطة عند ذلك تنكشف بسهولة ويزول الحجاب الذى يختفى وراءه هؤلاء باستعمال اللغة الفرنسية التى لا يقرأها إلا قلة قليلة من العرب •

وعلى كل فان غاية ما يمكن أن نقوله لصاحبنا هو أن يتوخى الامانة الفكرية التى هى حجر الزاوية لكل عمل علمى •

فالأمانة ••• الأمانة ••• يا أستاذ أمين !•

البشير بن سلامة

شاعر عبقري

شعر : زكي قنصل
(ارجنتين)

لهذا اليـوم خبـأت الدموعـا   فيا قوم اعذروا الباكي الجزوعا
نعى الناعى الى الفصحى فتاهـا   فهـز جذوعهـا وثنـى الفروعـا
ومال الى الريـاض فنـاح طيـر   وألوى نـرجس وبكـى مروعـا
شفيق تركتنى لليـأس نهبـا   فكيف تطيق اجفانى الهجوعا ؟
تملكنـى فمـالى منـه منجـى   وحط على الضلوع فلا ضلوعا
عطفت عـلى فاخضلت دروبـى   وذاع اسمى على الدنيا ذيوعـا
لئن لـم نجتمـع نسبـا فانـا   تلاقينا هوى وجـوى وجوعـا
ومـدت بيننـا الآداب جسـرا   متينا لا تـرى فيـه صدوعـا
بـلى ! جعنـا الى أهـل ودار   وهل عار علينـا ان نجوعـا ؟
كلانـا بلبـل هجـر المغـانى   وظل على البعـاد بهـا ولوعـا
أحـن الى تـراب أبـى وأمـى   وأطـرق إن ذكرتهمـا خشوعـا
لكل الناس من شمسى نصيب   فان غربت بعثت لهـا يشوعـا
كلانا عـاش للمظلـوم سيفـا   وللمحروم درعا ... بل دروعا
تمـردنـا عـلى قيـد ونيـر   ولـم نوقـد لطـاغية شموعـا
ولم نزحـف الى نشـب فانـى   رأيت العبقـرى فتـى قنوعـا
يموت الحـر من عطش وجـوع   اذا ما القـوت كلفـه خنوعـا

وقد يبدى الخضوع لذات دل ... ولا يبدى لذى ناب خضوعا
على دين المحبة قد نشأنا ... وطفنا حول كعبتها ركوعا
غسلنا الصدر من وضر وغش ... فليس يضم عاطفة خدوعا
نمد يدا لمن صلى لطه ... وثانية لمن والى يسوعا

* * *

شفيق خلعت ثوبا من تراب ... فطر كالعطر آلى ان يضوعا
نجيتك الوفية فى انتظار ... فخذ يدها وأم بها الربوعا
لكم فرشت دروبك بالدرارى ... وكنت هزارها الغرد السجوعا
وكم طلعت على ناديك بدرا ... وضيئا علم البدر الطلوعا
ورفرف فوق زحلة فهى أم ... تود لك الرفاهة والرجوعا
ألم ترها قد احتشدت جموعا ... فقم يا صاحبى حى الجموعا
براها مثلما أضناك ـ شوق ... فبل أوارها واشف الولوعا
بنى فوزى لها ذكرا سنيا ... وجئت فزدت شهرتها سطوعا

* * *

شفيق سبقتنى فاجعل مقامى ... بقربك ترض لى قلبا هلوعا
بكيت ، ولو ملكت زمام جفنى ... لما خبأت للحى الدموعا

زكى قنصل

ـ الارجنتين ـ

نحن والتفكير العلمي

بقلم : الحبيب الجنحاني

يذهب الباحثون فى تطور الفكر الانسانى ، الى القول بأن الانسان خضع فى نظرته الى الوجود فى مختلف مستوياته الى أنماط ثلاثة من الفكر والمنطق هى ما يعبر عنه مثلا عند أوغست كونت Auguste Conte (1798 – 1857) بقانون المراحل الثلاثة ٠

1) التفكير الاسطورى وأساسه المنطق العاطفى والانفعالية التى تقوم على الاحاسيس والمشاعر مما يجعل الانسان لا يرتقى الى مستوى تحكيم عقله عند التمييز بين ما هو صادق وما هو كاذب ، أو بين الوهم والحقيقة ٠

2) التفكير الفلسفى وأساسه المنطق العقلى الذى يقوم على تحكيم الحجة البينة الواضحة من أجل التمييز بين الصائب والخاطىء ، بين الحقيقة والمظهر

3) التفكير العلمى الوضعى وأساسه المنطق التجريبى والرياضى وهو لا يعتمد العقل المجرد وحده فى ادراك الوقائع المادية والطبيعية ، بل يتخذ من العمل أساسا لمعرفة أهمية الحقائق وجدواها فى الحياة العملية والعلمية على السواء ٠

الا أنه يجب التنبيه الى أن هذه الانماط ليست ذات ترتيب ميكانيكى ولكنها فى علاقة جدلية اذ تتولد عن بعضها بعض وتؤثر فى بعضها بعض ٠ بحيث لا نستطيع أن نقول إن عهد التفسير الاسطورى للاشياء أو عهد التفسير الميتافيزيقى للاشياء قد انتهى الآن ولم يعد موجودا غير التفسير العلمى المحسوس للاشياء والظواهر ، بل الملاحظ الى يومنا هذا بقاء الاسطورة

تفعل مفعولها فى ذهن حتى عالم الفيزياء النووية او التشريح والبيولوجيا ، فهو عالم ما دام فى مخبره يجرى التجارب ويدرس ويراقب ، فاذا خرج الى الشارع أو المنزل أو الحياة العامة عاد الى الخرافات والاساطير التى سمعها من جدته أو أمه أو جده وكأن العلم لا يتعدى حدود المخبر أو المعمل أما الحياة فى أوسع معانيها وفى مختلف أنشطتها الانسانية فيجب أن تكون مرتع الاوهام والاشباح وقد لاحظ أحد كبار مثقفينا العرب ، الدكتور زكى نجيب محمود فى كتابه « تجديد الفكر العربى » هذه الظاهرة التى تدعو الى الرثاء فى مجتمع يريد لنفسه النهضة والخروج من عصور الانحطاط والظلام والجهل فقال « ليست الاحداث عندنا مرهونة بأسبابها الطبيعية الا ونحن فى قاعات الدرس بالمدارس والجامعات ، حتى اذا ما انصرف كل منا الى حياته الخاصة فى داره أو فى المجتمع أفسح صدره لكل خرافة على وجه الارض يقبلها راضيا مغتبطا مؤمنا مصدقا • واذا كان هذا شأن العلماء منا والدارسين فماذا نتوقع لشأن سواد الناس أن يكون ؟•••• » (1)

ثم يضيف « الفرق بين السحر والعلم هو هذا بعينه وليس أى شىء سواه ، فالسحر والعلم كلاهما محاولة لرد الظواهر الى عللها وأسبابها ، غير ان الساحر لا يقلقه أن يرد الظاهرة البادية للعين الى علة غيبية ليس فى وسع الانسان أن يستحدثها أو أن يسيطر عليها ، وأما العالم فهو لا يقر نفسا الا اذا رد الظاهرة المحسوسة الى علة محسوسة كذلك ليمكن بعد ذلك أن نوجد هذه العلة المحسوسة فتتبعها الظاهرة اذا أردنا •

فالساحر والعالم يقفان معا الى جانب المريض ليعملا على شفائه ، فأما الساحر فيربط الظاهرة المرضية بالجن والعفاريت ، وأما العالم فيربطها بجرثومة معينة ••••» (2)

واذا كان الدكتور قد أورد هذا المثال المادى المحسوس فلنا أن نورد مئات الامثلة فى مجال النشاط الانسانى بأنواعه : اقتصادى ، سياسى ، اجتماعى ما زالت كلها تخضع فى الوطن العربى الى التفكير الاسطورى والسحرى ، فقد فسر بعض علمائنا الاجلاء نكبة 1967 بأنها غضب من الله محاولين بذلك التخلص من مسؤولية الانسان فى الحياة • وقد أوردت جريدة الاهرام

---

(1) تجديد الفكر العربى ط دار الشروق 1971 ص 60
(2) المرجع نفسه ص 60

المصرية صورة فوتوغرافية في صفحتها الاولى للسيدة مريم العذراء سنة 1968 على اعتبار انها ظهرت كعمود دخان في بيت المقدس (3) • فماذا بعد هذه السخافات غير البلاء وراء البلاء •

وانها لمفارقة عجيبة أن يجتمع بكل وضوح التفكير الاسطورى والعلمى خاصة عند المتخصصين فى العلوم الطبيعية بأنواعها والعلوم الرياضية ، أكثر مما يلاحظ عند الدارسين للعلوم الانسانية بل حتى المتخصصين فى الدارسات الدينية • ويمكن تفسير هذه الظاهرة العربية العجيبة بأن دخول المنهج العلمي الى الدراسات الانسانية ، التى هى ألصق بالانسان وثقافته وتاريخه وكل موروثاته الفكرية والعاطفية له تأثير فى تحديد النظرة الى الكون والانسان والمجتمع • ان دخول المنهج العلمى القائم على الشك والتمحيص لكل الموروثات ، مهما كانت قدسيتها وجلالها قصد اعادة بنائها بناء منطقيا عقليا يكسب الانسان الجراة والشجاعة على التجاوز الدائم للماضي والانفتاح الدائم على المستقبل ، وذلك هو منطق التطور التاريخى الحتمى •

---

(3) تاريخ الجريدة يرجع الى سنة 1968 فى 5 أيار ، كتاب **نقد الفكر الدينى** للدكتور صادق جلال العظم ط 3 دار الطليعة بيروت 1972 **فصل : معجزة ظهور العذراء وتصفية آثار العدوان :**
فقد حملت الاهرام بيان البابا كيرلس السادس الذى أعلن فيه حقيقة ظهور العذراء فى كنيسة الزيتون وأكده ، كما نشرت الاهرام على صفحتها الاولى صورة اعتبرتها تسجيلا فتوغرافيا للعذراء أو لطيفها • أذاع البابا هذا النبأ فى مؤتمر صحفى حافل حشدت له جميع امكانيات الصحافة المصرية ووسائل الاعلام المصرية ، واعلن أحد المطارنة المشتركين فى هذا المؤتمر الصحفى : « أن أحد ستوديوهات التصوير فى ضاحية الزيتون ، قد تمكن من تصوير السيدة العذراء أثناء ظهورها ليلا فى أحد الايام • ثم عرض الانبا صموئيل الصورة على الصحفيين وأمام عدسات التلفزيون » (الاهرام ص 2) كما أعلن « أن ظهور العذراء يتم بصورتها الكاملة على سحاب ناصع البياض أو بشكل نور يسبقه انطلاق اشكال روحانية كالحمام » (الاهرام ص 1)
كما ظهرت جريدة الانوار البيرونية (6 أيار 1968) بعنوان ضخم بالحبر الاحمر : « العدسة تسجل معجزة ظهور العذراء بالقاهرة » ونشرت صورتين متشابهتين للنور المقدس الذى يمثل طيف العذراء فوق قبة الكنيسة •

ولعل هذا ما جعل طه حسين يتعرض لتلك الحملة المسعورة من أعدائه ، وغيره من العلماء فى القديم (كابن رشد) والحديث ، حتى أوصلوه الى المثول أمام المحكمة بتهمة المروق والطعن فى المقدسات ، لا لشيء الا لكونه أدخل المنهج العلمي فى دراسته الادب والتاريخ الاسلامي . وليس حال علي عبد الرزاق بأحسن من حال طه حسين عندما كتب كتابه عن الخلافة الاسلامية وأصول الحكم أو الحداد فى تونس عندما كتب عن المرأة .

وهكذا يكون تدريس العلوم الانسانية من أوكد الواجبات لنهضة حضارية اساسها العلم والعقل والايمان بقدرة الانسان - خليفة الله على الارض - على صنع مصيره حتى بالنسبة لاولائك الدارسين للعلوم الصحيحة .

انه لمن أوكد الامور أن نفرق بين « العلم » و « الاسلوب العلمى » أو « التفكير العلمى » ف « العلم » ليس هو « الاسلوب العلمى » فى البحث ودراسة الظواهر سواء كانت مادية طبيعية أو انسانية حضارية . فكل « علم » يتحدد ب « موضوعه » أما الاسلوب فيتحدد ب « المنهج » . وشتان بين هذا وذاك .

خصائص العلم :

1) لكل علم موضوع محدد .

2) كل علم يهتم بناحية معينة من الواقع فيحصر اهتمامه بها وحدها .

3) لا يستطيع أن يرغب فى معرفة غيرها الا بصورة ثانوية .

4) كل علم يستخدم طرقه وأساليبه الخاصة به .

6) كل علم يحاول أن يجعل المعرفة الموضوعية للواقع على مقدار كاف من المطابقة المستمرة والمتزايدة رغم العراقيل والصعوبات ، ولذا فهو خاضع للمراجعة دائما فى مواقفه ونظرياته كلما جد جديد .

7) لكل علم مصطلحاته ورموزه .

واذا تجاوزنا هذه الحقائق التى يصل اليها العلم فى مختلف فروعه على أساس أنها مفردات جزئية لنبنى منها ومن نتائجها خلاصة جامعة نكون أمام التأسيس النظرى الفلسفى العلمى أو باختصار أمام « فلسفة علمية » . ولهذا بالذات يطلق على الماركسية مثلا بأنها « فلسفة علمية » ، ويطلق على «الوضعية

المنطقية، بأنها « فلسفة علمية » أيضا . واذا كان لابد هناك من نقد فهو يجب أن يستهدف مدى « علمية » أى منها . فما نقرؤه عادة من نقد نهذه الفلسفة « العلمية » خاصة بالنسبة للماركسية انما هو نابع من مواقف اديولوجية وليست علمية ، يمكن أن ترجع الى :

أ) الانتماء المصلحى الطبقى .

ب) الانتماء القومى والوطنى .

ج) الانتماء الدينى .

وطبيعى جدا لانتماءات كهذه أن لا تكون قادرة على النقد العلمى الصادق وان كانت صادقة فى تعبيرها عن انتماء أو موقع (4) .

ولكن الوصول الى هذه الدرجة من التعميم لنتائج العلوم هو بعينه الجهد الثقافى التنظيرى الذى يحتاج الى اطلاع واسع ومواكبة لتطور البحث العلمى فى مختلف المجالات ، وهو ما يفتقر اليه الفكر العربى الحديث وبوصوله الى هذه الدرجة يمكن ان نقول إنه دخل مرحلة الابداع الفكرى . ولا شك أن هناك محاولات تبشر بخير فى هذا المجال من المفكرين العرب الموسوعيين .

المنهج العلمى أو الاسلوب العلمى :

1) يتحدد بشموله للظواهر الطبيعية المادية والانسانية ولذلك فليس من العلم فى شىء أن يشمل ميدانا دون آخر ، فيصطنع فى بعض العلوم ، ويترك فى بعضها الآخر وهى الدراسات الانسانية . ان « المنهج العلمى » لا يتعدد وان بدأ كذلك فهو واحد لا يتجزأ « واذا كان الباحث فى العلوم الطبيعية أو الرياضية يصل الى نتائج صحيحة فى دراسة ظاهرة ما بالملاحظة والتجربة ثم التقنين فالدارس للعلوم الانسانية يتبع نفس الاسلوب مع الفارق حين يجمع معلوماته ويصنف ويقارن ثم يفسر وينظر » (6) . أما بقاء نظرية ما هو

---

(4) انظر مقالتى بالحياة الثقافية التونسية عدد 5 تحت عنوان المادية الجدلية والاستلاب الفكرى .

(6) د. محمود اسماعيل ، الحركات السرية فى الاسلام ، رؤية عصرية ط 1 دار القلم بيروت 1973 ص 169 . هو مجموعة من الدراسات العلمية حول الفرق الاسلامية : المعتزلة والخوارج والمرجئة والقرامطة وغيرهم .

مرهون باحاطتها بقوانين حركة التطور وبحدوث متغيرات تتعدل النظريات في ضوائها أو تذوى تاركة لغيرها المكان لانها أكثر قدرة على استيعاب الواقع ومسايرتها لـه ٠

2) يتحدد بكونه لا يعتبر أن كل شيء جائز حتى ما لا يقبله المنطق والعقل وسنن الكون ونواميسه (فقد اشترط علماء الحديث من المسلمين قديما بأن ما لا يقبله العقل أو الواقع فهو مردود باعتباره من الاحاديث الموضوعة التي لم تصدر عن الرسول عليه السلام)

3) الايمان بالسببية والحتمية : ان البعض يلفظون بكلمة علم « كما لو كانت شبحا مسلطا على الانسان لا يستطيع الاقتراب منه الا وفي يده شهادة من احدى كليات العلوم » ٠ والحقيقة أن الانسان يعرف الاشياء معرفة تلقائية عن طريق ما تنقله الحواس اليه من سمع وبصر ولمس الخ ٠٠٠ ولكن مثل هذه المعرفة هي معرفة تسجيلية للوقائع الموجودة لا ترتقي الى مرحلة الادراك لماذا يسقط هذا الشيء ؟ ولماذا من أعلى الى أسفل ؟ اذ لا وجود لحاسة تقوم
لماذا يسقط هذا الشيء ؟ ولماذا من أعلى الى أسفل ؟ اذ لا وجود لحاسة تقوم
بهذه الوظيفة التعليلية ٠ ولو وقف الانسان عند هذا الحد لكان شأنه شأن الحيوانات ، اذ لها حواس مثله ، أو آلة تصوير ، لانها تسجل ما يقع أمام عدسها بكل أمانة ، ولكن الانسان باعتباره « مادة وذكاء » فهو الكائن الذى يتدخل اراديا فيراقب تتابع الظواهر وتكرارها ، محاولا الربط بينها ، أى ادراك العلاقات التي تجعلها تقع وتتابع على الوجه الذى تنقله الينا الحواس ٠ ان بلوغ الانسان هذا المستوى من الادراك الواعي يعني تجاوز المعرفة التلقائية الى المعرفة العلمية في أبسط صورها ٠ واستطاع الانسان بذكائه أن يكمل نقص حواسه الخمس بما اخترعه من آلات ووسائل مادية توصل سمعه عبر القارات ، ونظره الى آماد بعيدة ٠ فالبحث العلمي لهذا هو تجاوز الاحساس بالوقائع المفردة الى ادراكها ثم يحلل كلا منها ليكشف العنصر المشترك الرابط بينها والقاعدة التي تضبط حركتها ويصوغ هذه العلاقة فيما يعرف بـ « القانون » La Loi وهكذا يبدأ البحث العلمي بالوقائع البسيطة المفردة لينتهي الى « قوانين عامة » «les lois Générales» والقوانين كلها « شرطية » بمعنى أنه « اذا » وقع « كذا » مثلا حدث « كذا وكذا » فاذا زرع نبات تونس في ثلوج سيبيريا يموت ، وتتوقف فاعلية القانون على شرط آخر مستمد من قانون جدلي شامل هو « التأثير والتأثر » وهو عدم تدخل مؤثر أي تصادم قانون بقانون آخر ، فالماء يغلى اذا وصلت درجة حرارته المائة مثلا

بشرط ثبات الضغط الجوى • ولا تتضمن صياغة القانون عادة « اذا » هذه أو « بشرط » ولكنه يتضمنها باعتباره قانونا • هذا هو التفكير المبنى على الايمان بالسببية والذى يعرف بالتفكير العلمى (7) • بحيث يجب أن لا نجعل منه شبحا مخيفا غامضا • ولقد كان الانسان منذ وجوده على هذه البسيطة يفكر علميا بهذا المعنى ، ولو أن درجة معرفته العلمية بدأت ضيقة مشوبة بالخرافة والبساطة ثم تطورت شيئا فشيئا اتساعا وعمقا وشمولا وما زالت تسير فى هذا الخط المستقيم التصاعدى • فمنذ أن كان الانسان يبحث عن طعامه فى الغابات أو يبنى كوخه على ضفاف الانهار ، ويحفر كهوفه فى سفوح الجبال عرف ــ وهى معرفة علمية ــ أنه بدون طعام يموت وأن الزرع لا ينبت بدون ماء،وأن الماء لا يجرى الى أعلى قد يبدو لنا نحن أبناء العصر هذا ساذجا لاننا عرفنا الكثير عن طريق البحث العلمى «المنظم والمقنن فى قواعد وضوابط » ولكن ليس معنى ذلك أن التفكير البدائى لم يكن تفكيرا علميا •

ان البحث العلمى أو المنهج العلمى فى البحث يقوم اساسا على وجود قوانين موضوعية ــ كلية أو نوعية (8) تحكم الظواهر والاشياء والانسان نفسه • وان وجودها هذا لا يتوقف على الانسان أى لم يوجدها ولا يستطيع تغييرها ــ فان أدركها فقد أدرك واقعا موضوعيا وان لم يدركها فهى موجودة ــ فحتى ارادة الانسان لها قوانينها لا تفلت منها حتى وهى تغير العالم • لا شىء يقع للصدفة أو الحظ لان الضرورة « انتظام الظواهر والاشياء والنشاط الانسانى على مقتضى قوانين حتمية ضرورة موضوعية » ومهما كانت قدرتنا على ادراك تتابع الظاهرة او ادراك جانب منها لا يمكن القول بأنها تحققت صدفة على غير ما تقتضيه القوانين التى تحكمها وتحكم أسبابها المعروفة وغير المعروفة ، لان « المعرفة » ادراك شخصى قد لا تتوافر أسبابه العلمية فى المكان والزمان بالنسبة الى شخص أو مجموعة من الاشخاص • وجدير بنا هنا أن نتعرض لتحليل مفهوم « الصدفة » (9) لانها تحتل مكانا من بين المقولات

---

(7) ولقد كان لايمان المسلمين القدامى فى عصور ازدهار الحضارة العربية الاسلامية بقانون السببية فضل فى اكتشافاتهم العلمية الكثيرة ولقد كان الغزالى رحمه الله أول من حاول ضرب هذا الايمان حتى أن ابن رشد قام ضده مدافعا عن هذا القانون وضرورة الايمان به •

(8) راجع مجلة الحياة الثقافية التونسية عدد 5 : المادية الجدلية والاستلاب الفكرى

(9) راجع د• عصمت سيف الدولة ، أسس الاشتراكية العربية •

الاخرى الكثيرة فى فلسفة « علمية » هى الماركسية • يقول الفلاسفة السوفيات المعاصرون (39 عالما) ، فى كتاب هام اجتمعوا لتأليفه بالتعاون مع بعضهم وصدر سنة 1963 تحت عنوان « أسس الماركسية ـ اللينينية » ، ما يلى : « عندما نعترف بأن لكل **ظاهرة** سببا حتما نكون قد اعترفنا بأن **الضرورة تحكم العالم** » ثم يضيفون « يوجد بين مختلف الظواهر فى الطبيعة والمجتمع بعض منها لا ينتج حتما من القانون الذى يحكم شيئا معينا أو مجموعة من الاشياء المعينة والتى يمكن أولا يمكن أن تقع بطريقة أو بأخرى وتلك هى **الصدفة** • لقد كانت مشكلة **الصدفة** محل خلاف كبير • ان المبدأ الصائب القائل بأن لكل ظاهرة سببا **فى الطبيعة أو فى المجتمع الانسانى** قاد كثيرا من العلماء والفلاسفة الى نتائج غير صحيحة وهى أن الضرورة قائمة فى العالم ، وانه لا توجد أية ظاهرة **صدفة وأن الصدفة** ـ طبقا لوجهة نظرهم ـ مفهوم شخصى نطلقه على الاشياء التى لا نعرف أسبابها • ان هذا الرأى خاطىء كلية اذ يخلط بين مفهومين هما : الضرورة Nécessité والسببية Causalité صحيح أنه لا توجد ظاهرة فى العالم بدون سبب • وان الظواهر التى تقع مصادفة لها أسباب **محددة** ولكن هذا لا يجعل الظاهرة ضرورية • خذ مثلا قطارا يخرج عن الخط ويدمر ، قد نعرف أن سبب الحادثة كان عدم احكام ربط بعض القضبان مثلا ومع ذلك فان الحادثة كانت صدفة وليست ضرورة ، لماذا ؟ •• لانها **نتجت عن ظروف لا علاقة حتمية بينها وبين حركة القطارات** ، ما دام من الممكن فنيا تحقيق الشروط الفنية التى لا يقع معها ذلك الحادث • ان انكار الصدفة **موضوعيا** يؤدى الى نتائج ضارة من وجهة النظر العلمية والتطبيقية • ان كل من يرى أن كل شىء ضرورى لا يمكن أن يفرق بين ما هو اساسى وما هو غير أساسى ، بين ما هو ضرورى وبين ما هو عارض كما قال انقلز تصبح الضرورة نفسها على مستوى العوارض • والفهم الصحيح لمضمون الضرورة والصدفة يتضمن بالاضافة الى معرفة الفرق بينهما معرفة العلاقة بينهما • ولقد عجزت الميتافيزيقا عجزا كليا عن معرفة هذه العلاقة لانها تنظر الى هذه الضرورة والصدفة كنقيضين لا علاقة بينهما ، وبعكس الميتافيزيقيون اثبت الماديون الجدليون انه من الخطأ أن ننظر الى الصدفة على انها نقيض الضرورة ، وأن نراها فى عزلة عنها كأولائك الذين يفكرون تفكيرا ميتافيزيقيا ، وأنه لا توجد أية صدفة مطلقة • هناك صدفة بالنسبة الى شىء ما فقط • انه لمن الخطأ أن نفكر أن الظاهرة اما أن تكون ضرورة محضة أو صدفة محضة • ان كل صدفة تتضمن عنصرا من الضرورة ، والضرورة

تشق طريقها وسط ركام من الصدف ، ان جدل الضرورة والصدفة يكمن فى الحقيقة فى أن الحادثة ، تظهر كشكل من الاشكال التى تعبر بها الضرورة عن نفسها ، ومكملة لها ، ولهذا فان الحدث العارض يأخذ مكانه داخل الضرورة »

ان الضرورة تعنى وقوع الحدث بتوافر كل شروطه **حتما ولا يهمنا بعد** ذلك وقوعه مرة كل يوم أو بعد سنين كما لا يهمنا أن يكون وقوعه « ضرورة اجتماعية اقتصادية » أى بالمعنى الاجتماعى حيث تعبر الضرورة « **عن الحاجة اليها** »

وليس من الضرورى أن تقع تلك الحادثة التى دمرت **القطار واستعمال** تعبير الضرورة فى كل هذا خروج بها عن مفهومها العلمى ، « **فالقطار يدمر** حتما اذا ارتطم بالارض طبقا للقوانين التى تحكم صلابة المادة المصنوع منها ويخرج عن الخط حتما اذا لم يكن ربط قضبانه طبقا للقوانين التى **تحكم** حركته وتوازنه خلال الحركة . أى أن شيئا لا يقع على **خلاف ما تقتضيه القوانين التى تحكم** نوعه وكل هذا لا يؤدى الى التسليم بوجود **الصدفة كظاهرة** موضوعية الا اذا ادخلنا عنصر المعرفة فى القوانين الموضوعية فلو عدنا الى حادث **القطار** وافترضنا أن شخصا ما قد تعمد عدم احكام **ربط القضبان** عندئذ **سيكون الحادث** بالنسبة له وهو الذى عرف « السبب » « ضرورة » بينما يكون بالنسبة لمن لا يعرف ذلك هو « صدفة » وهذا معناه أن « الحقيقة الموضوعية للظاهرة تختلف باختلاف معرفة الاشخاص لها وتلك **هى المتافيزيقا** » لانها تنكر أن يكون العالم منضبطا على قوانين حتمية وصحتها الوحيدة أننا لم نعرف بعد القوانين التى تحكم شيئا من الاشياء أو ظاهرة من الظواهر « أى مصادر البحث العلمى بالاحتجاج عليه بما هو مجهول اليوم . » ان القول الذى أورده الفلاسفة **السوفيات فى** كتابهم المذكور فتح ثغرة ميتافيزيقية لانه شكك **فى حتمية القوانين العلمية** وفتح الباب واسعا لنظرية « الاحتمالات » و « اللاحتمية » و « **الستاتيكية** » التى ينادى بها أصحاب الشعوذات « **العلمية** » **وأعداء الفكر العلمى** .

4) – ويتحدد بأن كل شىء يقبل البحث العلمى ، **فقد كانت كثير من الميادين** لا يتطرق اليها البحث العلمى ولكن البحث العلمى سجل **فيها نتائج** باهرة تشهد عليها الدراسات النفسية والاجتماعية والانتروبولوجية **واللغوية** وغيرها وأصبحنا نعرف كثيرا من الحقائق فى هذه الميادين كانت فى وقت ما مرتعا خصبا للاساطير والشعوذات والتخريف .

5) ويتحدد أخيرا وليس آخرا بالثقة فى التقدم العلمى ومعرفة الحقائق الموضوعية . وما يعد اليوم مجهولا قد يكشف عنه فى يوم ما . فلم يكن البحث العلمى قبل القرن العشرين مثلا يعرف شيئا كثيرا عن بنية الذرة وتركيبها ، فهل أن عدم معرفة الانسان لها قبل ذلك يعنى أن ليس هناك شيئا يقال عن الذرة ؟.

لماذا الخوف من العلمية ؟

يستند من ينكر العلمية ودخولها ميدان الدراسات الانسانية الى (15) :

1) تصور امكان التفرقة بين انواع النشاط الانسانى بحيث تطبق العلمية على جانب دون آخر .

2) التشكيك فى قدرة العلم والعلمية على الفصل فى القضايا العليا أو موضوع الدراسات الانسانية .

3) الاشفاق من أن تكون العلمية مصدرا للاذى من جانب والفوضى من جانب اخر لاحتمال أن ينشأ مجتمع بدون قيم انسانية .

وهذا منطق لا يستند الى الموضوعية وليس مقنعا ولا هو قادر على الرجوع بالبحث العلمى الى الوراء لان شغف الانسان الدائم بالبحث وفك الغاز الكون اثبت التاريخ وحركته التى لا تتوقف أنه مستحيل حتى فى عصور الانحطاط وهيمنة الفكر الدينى الكنسى فى العالم الغربى (غاليلى) . واذا كنا نلاحظ افتراق المتخصصين كل فى ميدانه فان النتائج التى يصلون اليها فى بحوثهم تصب بعد ذلك فى نهر الحياة الدافق ، وبقدر تأصل العلمية فى عقولنا وامتداد نفوذها علينا يقع انتقالنا الحضارى من مرحلة الى مرحلة أخرى تتخطاها وتتفوق عليها . ان التفكير العلمى هو الذى باستطاعته أن يقرب الشعوب من بعضها بعض وينهى العزلة بينها ويجعل لمفهوم « الاصالة والمعاصرة » معنى منطقيا وعلميا يستجيب لتطور التاريخ الانسانى الدائم والا فقدت هذه الدعوة معناها ومدلولها الذى نطمح الى تأصيله فى نفوسنا فى البلاد العربية والعالم الثالث بصورة أعم . وهذا يدعونا الى الكشف عن كثير مما يقال فى هذا الموضوع الخطير مدعيا أنه يستند الى العلم والمنطق والحال انه لا يملك فى ، أغلب الاحيان ، شيئا مما يصل به الى ذلك المستوى

---

(15) راجع د. عبد العزيز الاهوانى ، أزمة الوحدة العربية ، ط 1 المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ص 239

الذى نكافح من أجله ٠ أصدر المفكر والفيلسوف العربى الكبير الدكتور زكى نجيب محمود فى مصر كتيبا تحت عنوان « الشرق الفنان » وقصده أن يقدم حلا لازمة الفكر العربى المعاصرة ـ والتى نأمل أن لا تصبح مزمنة ـ تتعلق بمحاولة التوفيق بين « **الاصالة** » و « المعاصرة » أى الربط بين الماضى الحضارى والفكرى والثقافى المجيد للعرب وبين الحاضر ـ الغائب الذى يبحث عنه والذى يمثله حاضر الحضارة الاروبية التى غزته فى مختلف جوانب الحياة ونشاط الانسان « انه اجابة على السؤال الكلاسيكى الدائم هل الامة العربية صاحبة حضارة متميزة مستقلة لها شخصيتها وطابعها الذى يختلف عما عند الاروبيين ؟ ثم ما هو مستقبلها ؟ وما مدى قدرتها على الثبات أمام زحف الحضارة الاروبية صاحبة الكلمة الفصل فى هذا العصر؟»

انه سؤال يلخص الشعور بأزمة حضارية تكمن فى الخوف من الضياع من ناحية والاحساس بالتخلف ومحاولة الخروج منه من ناحية ثانية ٠ وقد كانت الاجوبة على هذا السؤال كثيرا ما تدفع الى مواقف عاطفية ومضطربة ، فيها من الافتعال الشىء الكثير ، تتأرجح بين أقصى اليسار كدراسات د٠ صادق جلال العظم ، عبد الله العروى ، الهادى العلوى ٠٠٠٠ الخ وأقصى اليمين والسلفية كحركة الاخوان المسلمين وغيرهم ٠ (11) ينطلق د٠ زكى نجيب محمود فى تقييمه لهذا الموضوع من منطلق فلسفى أساسه أن الانسان قد ينظر الى الوجود الخارجى « ببصيرة تنفذ خلال الظواهر البادية للحس الى حيث الجوهر الباطنى » (ص 130 وما بعدها من كتاب الدكتور عبد العزيز الاهوانى المذكور فى الهامش)

أو « ينظر الى الوجود الخارجى بعقل منطقى تحليلى يقف عند الظواهر فيجعل من اطرادها وتتابعها قوانين يستخدمها فى استغلال الظواهر الطبيعية على النحو الذى يرتضيه » (المرجع نفسه) وهذا هو الفرق بين العلم والفن

---

(11) راجع مثلا د٠ صادق جلال العظم فى كتابه : نقد الفكر الدينى وعبد الله العروى فى الايديولوجية العربية المعاصرة وأزمة المثقفين العرب ، والهادى العلوى فى كتابه فى الدين والتراث ٠ الا أن هناك دراسات أخرى تمتاز بكثير من الرصانة ، كدراسات الاستاذ محمد عمارة ، والطيب تيزينى وشكرى غالى و حسين مروة وغيرهم ٠ أما بالنسبة لليمين والسلفية فالدراسات أكثر من أن تحصى ، ككتابات السيد قطب ، محمد قطب ، محمد البهى وغيرهم ٠

ويرى أن الشرق الاقصى (الهند والصين وما جاورهما) يتميز بنظرة الفنان الذى يدرك الحقيقة بذوقه وذلك هو « طابعه الاصيل » أما الغرب (أروبا وأمريكا) فهو يتميز بنظرة العالم الذى يدرك الحقائق اعتمادا على المشاهدة والتجربة والتحليل والتعليل وذلك هو « طابعه الاصيل » • أما الشرق الاوسط فهو موطن الالتقاء ، عبر تاريخه الطويل ، بين تلك النظرتين فقد تجاور العلم والدين فى حضاراته القديمة كما تجاور الفن والصناعة والاختراع ، وهو بالاضافة الى كل ذلك مهبط الاديان السماوية وقد تحولت العقائد الدينية فيه على يد المفكرين الى بناء فكرى أساسه العقل والمنطق كما تجلى بوضوح عند الفلاسفة المسلمين وعلمائهم • فاجتمع عند هؤلاء نظرة الفنان بكل روحانيتها ونظرة العالم بكل ما فيها من عقل ومنطق يرتكز على التحليل والتركيب والتعليل والاستدلال ولا شك أن الكثيرين وجدوا فى هذا الحل النظرى راحة نفسية وثقة بالماضى والحاضر والمستقبل • ان هذه النظرية التى تجعل من العالم كتلا حضارية ثلاثة متباينة ذات أسس و « طبائع » أصيلة مختلفة وثابتة تقترب من نظريات حضارية أخرى لعلماء غربيين كاشبنجلر ونور ثروب وارنولد توينبى فعند اشبنجلر مثلا « أن هناك حضارات متعددة تنبثق من معتقد جوهرى أو من رمز أولى خاص بها وهو الذى يعين معتقداتها الاخرى وينظم حياتها وعادات اهلها وعلومها وفنونها وآدابها وكل انجاز من انجازاتها أو مظهر من مظاهر وجودها » (12) ولهذا كانت « خصائص كل حضارة وانفصالها وتفردها عن سواها • كل ما فى حضارة ما هو خاص بها لا يتعداها الى سواها ، وليس هناك نظام سياسى واحد ولا اقتصاد واجتماع واحد ولا عقائد أو سنن أو أخلاق انسانية واحده ولا فنون وآداب واحدة • حتى العلوم تابعة للحضارات ومختلفة باختلافها» (13) والحقيقة أنه حتى وان تعددت الحضارات قديما واستمرت مخلفاتها تطبع بعض شعوب عالمنا المعاصر فليس معنى ذلك أن هناك « طبائع » ثابتة لان العلم يرفض هذه « الطبائع » الثابتة ويؤمن بالتطور وتحرى الاسباب الكامنة وراء ذلك الذى يسمى « طابعا أصيلا » (14) • وما يفسر تعدد هذه

(12) د. قسطنطين زريق ، فى معركة الحضارة ، دار العلم للملايين ط 1 بيروت 1964 ص 63 •

(13) المرجع نفسه ص 63 •

(14) راجع دراستى عن التراث : تراثنا فى ضوء أحداث التاريخ والتعليق عليها للاستاذ الدكتور محمد الحبيب الجنحانى مجلة الحياة الثقافية التونسية عدد 4 وعدد 5 •

الحضارات هو انعزال المجتمعات قديما وانطواؤها ، بحيث تعددت الانماط الحضارية ، ولكن التقدم العلمي والتكنولوجي الذي أحرزه الانسان قلص من الفوارق « العقلية » وقرب المسافات بحيث لم يعد الانطواء والانعزال يقويان على البقاء طويلا في مستقبل الحياة الانسانية . انه من المتأكد كما يقول الدكتور عبد العزيز الاهواني (15) إن هناك نظرة الفنان ونظرة العالم وكلاهما سيعيشان دائما طالما كان للانسان عاطفة وعقل . ان اجتماعهما يكون متوازنا عند الكثرة ومستبدا جائرا عند القلة بحيث نجد العلماء والفنانين وهو أمر واضح لدى جميع الشعوب والافراد في كل المجتمعات ولكن توزيعهما بالشكل الجغرافي الذي ذكره الاستاذ الدكتور زكي نجيب محمود وعدم ذكر الاسباب التي دعت الى هذا التوزيع للملكات الانسانية حسب قارات اربعة ، كان الاساس وراء ضعف نظريته من الناحية العلمية . لو اكتفى برصد الظواهر وتسجيلها دون تعليل أو شرح لكان أقرب الى المنطق العلمي . لانه من حقنا أن نعرف لماذا كان الشرق الاقصى « فنانا » وكان الغرب « عالما » والشرق الاوسط « ثنائيا » ؟ . ان الكشف عن سر ذلك وعلته هو مفتاح لفهم الماضي وبالتالي التحكم في المستقبل ، لاننا مثلما نؤمن بالتطور نؤمن كذلك بحرية الارادة الانسانية . « ان الانسان صانع التاريخ لا اعتباطا لكن في الظروف التي يعيشها وتحيط به » . ولا شك أن الدكتور زكي نجيب محمود بتعبيره « طابع الاصيل العميق » كما يضيف الدكتور الاهواني عند وصف الشرق الاقصى والغرب ثم امتداد الفكرة عنده من الماضي الى الحاضر عبر التاريخ أي منذ فجر التاريخ يؤيد الايمان بما يعرف بـ « الطبائع الثابتة » وهذا يجعله قريبا من نظريات عنصرية ظهرت في الغرب تبرر تخلف شعوب كثيرة ـ كانت مستعمرة في وقت ما ـ بأنه ناتج عن « خلقة وتكوين طبيعي أصيل ، وقد تعرضنا لتفنيد هذه الفكرة من قبل أما هنا فنكتفي بالقول بان العلم والواقع ينكران وجود طبائع ثابتة تظل تلازم الشعوب منذ ظهورها حتى نهايتها لان هذا ينفي أحد القوانين العلمية الجدلية من كون كل شيء متأثر ومؤثر . فليس لدى أمة ما « جوهر فرد » يستعصى على التغيير أو التقسيم . وما دمنا نقول اننا نؤمن بالتطور وبحرية الارادة الانسانية في

---

(15) المرجع المذكور ص 133 وما بعدها .

(16) راجع دراستي المشار اليها عن التراث . ودراستي عن اللغة العربية العربية في الملتقى الثالث لابن منظور بقفصة ، منشورات الحياة الثقافية 1974 الصادر عن وزارة الثقافة تونس

نطاق الظروف الموضوعية ، فانه حين تتغير الظروف المعيشية لشعب تواكب عقليته هذا التغيير وتتبادل معه التأثير . وقد كان ابن خلدون المفكر العربي العظيم أكثر قدرة على ادراك ما فات الدكتور زكي نجيب محمود وذلك حين بين تفكيره الاجتماعي والسياسي المتمثل في انتقال الشعب من البداوة الى الحضارة (17) ، اذ أن تغير البناء الاجتماعي يؤدي الى تغير نمط التفكير والعكس صحيح ، فحين تتغير نظرة الانسان الى الوجود الخارجي نتيجة لتقدم علمي أو تقني أو احتكاك بشعوب أخرى تتغير حضارته . هذا وأن نظرة الانسان الى الوجود الخارجي التي تتمحور ، بحسب نظرية د. زكي نجيب محمود ، حول :

1) نظرة حدسية تنتج فنا .

2) نظرة عقلية تنتج علما .

لا تعرض الا جانبا واحدا من الموقف الانساني كما يضيف الدكتور الاهواني (المرجع المذكور) هو الجانب الذي لا يدخل تاريخ عمر البشرية الطويل في حسابه . لان الادراك الحدسي البرغسوني (18) أو السريالي Surréalisme في عصر كهذا عصر العلم والتطور التقني والفني ، العصر الذي تخلص فيه الانسان من كثير من المخاوف البدائية ، والاوهام ، والخرافات التي سببها عجز الانسان أمام تفسير ظواهر الوجود الخارجي كما تظهر في الطبيعة والمجتمع ، هو غير الادراك الحدسي في مراحل الطفولة البشرية حين كان الخوف والعجز والشعور بالضعف أمام ألغاز الكون المبهمة المتقلبة ، أمام المجهول الذي يضفي على الوجود وعناصر الحياة غموضا

---

(17) راجع الدراسة الممتازة عن ابن خلدون للدكتور محمد الطالبي بالفرنسية : Ibn Khaldoun, ser vie, œuvre, MTE, 1973

(18) هنري برغسون فيلسوف فرنسي (باريس 1859 – باريس 1941) متحصل على جائزة نوبل 1928 من أهم مؤلفاته : المادة والذاكرة ، منبعا الاخلاق والدين ، محاولة في الوقائع المباشرة للوجدان لمزيد الاطلاع على أفكاره هناك مؤلفات كثيرة بالعربية نذكر منها على سبيل المثال : برغسون للدكتور المرحوم زكريا ابراهيم الصادر عن دار المعارف بمصر ضمن سلسلة نوابغ الفكر الغربي ، ثم كتاب : تاريخ الفلسفة الحديثة للمرحوم يوسف كرم .

ووهما يثير الفزع أو الفرح والانشراح . وما يقال فى شأن الادراك الحدسى أو الاسطورى يقال عن الادراك العقلى والنظر المنطقى التحليلى . فالتصور العلمى للكون وأفلاكه وسماواته ونجومه عند عالم مصر القديمة أو اليونان أو حتى العرب غير التصور العلمى لعالم اليوم . فالعلم القديم ممزوج بالخيال والصوفية التى تحتمها ضآلة المعرفة وقصور تصورها . وبهذا نصل الى القول بأن الادراك الحدسى عند الانسان فى طفولته هو العلم الوحيد . كانت الاسطورة هى علم التاريخ لانه لا يوجد ما يعرف بعلم التاريخ . وفرق شاسع بين فلاح فى بابل أو أشور أو الهند القديمة وهو يسمع أسطورة وبين أسطورة يسمعها انسان اليوم ويعيد كتابتها شخص كتوفيق الحكيم أو لافنتين أو كامى ومالرو . فقد كان التفسير الحدسى محاولة لتفسير الوجود وتحديد لمكان الانسان فيه . وكان مرحلة جاء اثرها النظر العقلى العلمى باعتباره تفسيرا للوجود ايضا وتحديدا لمكان الانسان فيه . على هذا الاساس من التفريق بين كل من الادراك الاسطورى أو الحدسى الساذج البدائى المميز لطفولة الانسانية ودوره عند الانسان المتحضر الواعى المثقف . على أساس هذا التفريق يتضح أن تاريخ الحضارة الانسانية يمكن أن ينقسم بصورة عامة الى :

1) مرحلة التفسير الحدسى أو الاسطورى للكون وهى مرحلة حتمها تاريخ التطور الانسانى .

2) مرحلة التفسير العقلى الفلسفى والعلمى وهى المرحلة الثانية التى ارتقى اليها الانسان بعد التخلص من بعض مخاوفه وأوهامه فاذا كان مجتمع من المجتمعات الانسانية مازال يقف الموقف الاول معتقدا أن هذا هو الادراك الوحيد الصحيح فمعنى ذلك أنه ما زال فى مرحلة الطفولة الانسانية أى المرحلة الاسطورية وأن ظروفا خاصة حتمت بقاءه هكذا ، وانه من منطق التاريخ أن يكون عصرنا عصر العقل والعلم والحدس ولن ينعزل الحدس عن العلم فى المستقبل ليكون لكل واحد وطن أو مستعمرة خاصة به وان الازمة التى أراد د. زكى نجيب محمود أن يخلص منها الفكر العربى الحديث لا تكون بغير فهم عميق ونافذ لمشكلاته الملموسة الحية ، والمشاركة فى التقدم البشرى والالتحام مع الانسانية فى كفاحها ضد الثلاثى المقيت الجهل والفقر والمرض من أجل عالم أفضل تلك هى أسباب التخلف والاستعمار والاستغلال .

ويبدو ان الدكتور زكي نجيب محمود كان معجبا بالحل الفكري ، الذي وصل اليه في كتيبه المذكور ، أوقل الحل الايديولوجي للازمة فواصل محاولاته التنظيرية تلك فأصدر كتابه الهام « تجديد الفكر العربي » ، وفيه يحاول تشخيص أسباب التخلف الفكري والمشكلات التي تواجه هذا الفكر والحلول المقترحة التي تنظر الى ايجابيات التراث ومكتسبات الحضارة الحديثة ذات الطابع الاوروبي (الشرقي والغربي) وقد توخى منهجا رغم ، وحدته الظاهرية، فانه يفتقد الاتساق الداخلي بحيث نراه ، يجمع أفكارا وقيما من عصر التنوير حتى المادية الميكانيكية مرورا بالوضعية المنطقية ـ وهو أحد روادها ودعاتها في الشرق العربي و البرجماتية ، والتجريبية ، كل هذا الخليط مجتمع في وقت واحد « مما جعل المقدمات تتناقض مع النتائج » (19) وكأمثلة على عذا التناقض بين المقدمات والنتائج نورد من قوله ما يلي : ان قدرا كبيرا من الفاظ حياتنا اليومية وحياتنا الثقافية على السواء يهيم في فضاء المعاني المجردة غير الموصولة بجذورها المادية فلا نحصل منها على الفكر وانما على الروتين الاجوف ان هذا التحليل للغة المأخوذ من المنطق الوضعي سرعان ما يتلاشى لتصبح اللغة العربية لغة الارادة الانسانية الفاعلة ما دامت الجملة تبدأ فيها بالفعل ٠

ويقول بأننا في مرحلة تحول تستدعي ألا يكون لدينا ـ قواعد ثابتة للقياس لتفتح الطريق أمام المبادرة والمغامرة و الخلق فنبتكر لكل موقف ما يلائمه من قيم ونظم بالمعنى التجريبي البحت في الفلسفة الذرائعية (البرجماتية) ومن التناقض ايضا انه انقلب من المثالب التي أدان بها الفكر العربي اللا عقلي في البداية الى القول « كان للعقل أعظم » القيمة عند أسلافنا » وهي جملة تتناقض من حيث المضمون تناقضا حادا مع ما جاء في قوله بعد ذلك من أن « قطب الرحى عند فلاسفة الغرب هو احكام العقل وقطب الرحى عند المفكر العربي هو قيم السلوك ٠ والخير وكل الخير أن تضم هذه الى تلك » أما عن الدين فانه يؤكد على أن الايمان قضية فردية موكولة الى الانسان « ونجعل العلم موكولا الى العقل دون أن نحاول امتداد أي من الطرفين ليتدخل في شؤون الآخر » وهي دلالة سياسية اجتماعية ليبرالية اساسها ما يعرف من فصل الدين عن الدولة ٠ وبقية الافكار والقيم المعروضة كلها تتحرك في اطار الفكر الليبرالي ٠

---

(19) د٠ شكري غالي مجلة الطليعة القاهرة أغسطس 1972

ويتغافل الدكتور زكى نجيب محمود عن حقيقة ما يدفـع الى النهـضـة الحضارية والانتقال من الوضع القديم الى الجديد حتى يصبح عنده التحـول يكمن فى مجرد ثورة لغوية ـ وهو أمر هام ولكنه غير كاف وليس هو الاساس ـ الامر الذى ينقل العرب من ثقافة اللفظ الى ثقافة العلم والتكنولـوجـيـا والصناعة ، ولن يتم هذا بالتوجه الى التراث بـل بالـرجـوع الى « أوروبـا وأمريكا » « نستقى من مناهجهم ما تطوعوا بالعطاء وما استطعنا من القبول وتمثل ما قبلناه » . أما معيار القبول والرفض فهو الالتجاء الى الفلسـفـة الذرائعية التى تجعل النفع والضرر هو المقياس العملى ماديا وعقليا .

إن ثلثى الكتاب تقريبا خصص لهذا الخليط غير المتنـاسـق ـ بحـكـم الافتقار الى المنهج العلمى والنظرية العلمية ـ من الافكار والقيم ، أمـا الثلـث الاخير وهو الذى يهمنا فقد خصص لبناء مشروع « فلسفة عربية مقترحة » كصياغة للنتائج التى انتهى اليها من ثلثى الكتاب وهنـا تصـدى لنقد الماركسية نقدا سريعا وكلاسيكيا ، والملاحظ أنه يتجاهل (د. شكرى غالى المرجع المذكور)

1) ما هو مشترك بين البشر

2) أن هناك تطورا تاريخيا من الحدس الى العلم .

3) محور العلاقة بين الدرجة الحضارية التى يبلغها شعب وميلاد « فلسفة » فيه .

4) الطابع القومى للفلسفة هو جماع عناصر « الواقع » الذى ولدت فيه أو طبقت عليه .

5) طابعها هو جوهرها كتصميم لنتائج العلوم فى زمان معين لا فى مكان معين .

ويعتقد الدكتور زكى نجيب محمود وكـأن المسألـة أو أزمتنـا الحضاريـة والثقافية تحتم أن تكون لنا « فلسفة عربية » حتى نشعـر بأننـا بلغنـا طـور النضج والابداع والحال أن للخلق مناخا وعوامل هى أغلبها مفقودة فـى بـلاد العالم الثالث ـ والوطن العربى جزء منه ـ فى بلاد مازالـت تعـانـى مـن الرواسب التاريخية : الجهل ، الفقر ، المرض ، « الثابوت » بأنواعهـا وكلهـا تقهر عقل الانسان ولا تترك له مجالا للابداع .

ثم هو مرجع الى فكرته الاساسية فى كتيبه « الشرق الفنان » ليتقسم العالم جغرافيا فى كتابه « تجديد الفكر العربى » هذا الى فلسفات :

فغرب أروبا مشغول بالمعرفة العلمية وشرقها مشغول بالمجتمع وعلينا نحن أن ننتهج فى اقامة فلسفتنا طريقا وسطا عرفت به حضارتنا قديما حتى نتفادى ما آلت اليه الامور فى الغرب من تدهور فى القيم ونحتفظ بالجذور الثقافية الغائرة فى اعماق نفوسنا وهكذا تكون الفلسفة المقترحة هى جماع السماء والارض وهكذا يكون الدكتور زكى نجيب محمود معلقا بين السماء والارض دون أن يحدث التفاعل الخلاق بينهما ، وتكون الحياة أبعد ما تكون عن الالتحام بالارض والسماء ما دام يسود العالم الظلم والقهر والاستغلال وكل الآفات والامراض الاجتماعية والاخلاقية . ان مثل هذه الدراسات تستند الى التلفيق أكثر من الاستناد الى الرؤية الواضحة التى يحكمها منهج واضح وعلمى فتبقى بعيدة عن معانقة الواقع الذى تعيشه الجماهير فى البلاد العربية . وان كان لمثل هذه الدراسات من فضل فهى تطرح المشكلات والقضايا التى تستدعى الوعى والتفكير فالحلول العلمية الواقعية .

ح. م

مدنين : 18 / 2 / 77

اخوانيات

شعر : جعفر ماجد

نال الشاعر جعفر ماجد الدكتوراه في الآداب واللغة العربية فانبرت قرائح أصدقائه من الشعراء تهنئه بهذا الفوز العلمي فرد عليهم شعرا ·

وقد احببنا أن نورد هذه القصائد في باب الاخوانيات الذى كاد في عصرنا الحاضر ، عصر الآلة الصماء أن ينطفىء ويتلاشى

الأخ الكريم جعفر ماجد

أجل نلت الرغاب أبا المعز   بما حققت من ظفر وفوز
لأنك ذا اعتزام أغلبى   ومن كالأغلبى بلوغ عز
دأبت على طلاب العلم حتى   ظفرت اليوم منه بخير كنز
كذلك يدرك المرمى مجد   ويصبح للرقى أجل رمز
ترى فيك العلا أسنى مثال   لمن لم يتصف يوما بعجز
وأنت كما عهدنا ذو حصاة   تبز بها العوائق كل بز
ركبت فرضته صعبا جموحا   وما اخفقت فى حل للغز
جريت لغاية لك فى سباق   وحزت السبق فيه أى حوز
على ما فى طباعك من طموح   وما بك شيم من كرم المهز
فلم تقعدك عن هدف صعاب   ولا ما كان من فقر وعوز
رميت فلم تكن أشويت مرمى   مصيبا للمقاتل فى المحز
مغيظا كل من كادوك كيدا   وما باليت ذا همز ولمز
أجعفر من له يزهى يراع   به طرز القصائد أى طرز
جمعت مهنئا لك زهر شعر   من التصويح فى أمن وحرز
دفعت به اليك ولا تلمنى   اذا ما كان عندك ليس يجزى

القيروان   وسلام عليك

فى 23 جوان 1977   أخوكم : **محمد مزهود**

أخي يا مبدعا في كل طرز — تقبل كل شكر أبي المعز
لقد قلدتني طوقا نفيسا — فرزت له الجواهر أي فرز
فجاء الشعر آية عبقري — وللود المصفى خير رمز
ألم تكن الأواصر من قديم — كصلب الصخر لا تعنو لحز
ألا إن انتصاري في سباق — به لم أمتلك أسباب فوز
دليل أننا من صلب شعب — يرى أن المعارف خير كنز
وحسبي أنني حققت نصرا — لجيل ناء من فقر وعوز
لقد سرنا على درب أليم — ولم نحفل بهمز أو بلمز
وكنا رغم فاقتنا رجالا — نجاهد في الحياة لنيل عز
كسبناه الرهان لكل طفل — شكا مثلي ومثلك دون عجز
فلا تأمن نفاق « ذوى المعالى » — ومجد بالوراثة وهو مخز
وهيء من نفوس النشء جيلا — يبزهم جميعا أي بز
(نزار)(I)سوف يكمد حاسديه — ويلقى في حنانك خير حرز
و(جعفر)(2)سوف يأتيهم طبيبا — ويأسو علة منهم بوخز
لقد جاريت شعرك في قواف — أنا فيها أقر لكم بعجزي

جعفر ماجد

(I) ـ (2) ابناء الشاعر محمد مزهود .

★ ★ ★

إليك أصوغ أحر التهاني — وأرفعها يا فتى القيروان
ويا وارث الحصري البصير — بأسرار فن بديع المعاني
ورثت العروض عن ابن رشيق — وقد عشت تقفو فحول البيان
الى أن بلغت الذي ترتجيه — وحققت في العمر أغلى المعاني
و (الدكتوراه) التي حزتها — سوى بدء سير لأعلى مكان
الى أن نراك تجوز الثريا — ويزهو بآثارك النيران
فيا جعفر الشعر والنثر خذها — من القلب أزكى المنى والتهاني

نور الدين صمود

أتتني قواف على نزرها — شربت بها منك سحر البيان
وأبقى المودات بما بيننا — صفاء القلوب وطرز المعاني
ولم نك يوما بتجار شعر — ولم نقبل الهزء في (مهرجان)

منعنا الكلام على باخس ... ولم نقتسم غير حب الحسان
وراحوا ودمنا على ما ألفنا ... وإنا لفى فننا توأمان
وما زلت أذكر عهدا قديما ... هجانا به كل قاص ودان
لأنا وصفنا الجمال كثيرا ... وإنا على وصفه ثابتان
ولكننا حين تطغى الخطوب ... نكون مع الشعب فيما يعانى
فشكرا على ودك المستعاد ... وعذرا على ما ترى من توان

جعفر ماجد

* * *

طراد إليه اليوم قد زفت البشرى ... فأصبح يهدى جعفرا نفحة أخرى
نجاح يزين الفكر ، أروع باهر ... به اعتزت الخضرا وتاهت به فخرا
نجاحك يا « دكتور » أنت به حر ... وما كأبى مروان كان به أحرى
لقد كانت الآداب أعظم شاهد ... وسل نادى الكتاب، والشعر والنثرا
أهنيك بالفوز الذى أنت نلته ... وما نلت إلا ما سيسعدك الدهرا
وشعرى وإن لم يوف حقك صوغه ... فأنت بما كنت جوانحنا أدرى
وإن كان هذا الفوز هز مشاعرا ... فما ذاك إلا أنه الفرحة الكبرى

القيروان فى : 20 – 6 – 1977

محمد طراد

تلقيت هذا اليوم رائعة غرا ... وهل كنت ألقى منكم غير ما سرا
عرفتك أوفى الاصدقاء وإننى ... أعدهم كثرا وألفيهم نزرا
وجربت أنواع المودة عندهم ... فكانت زجاجا كلها تقبل الكسرا
سواك وأنت الخل فى كل حالة ... صفوت لنا قلبا ورقت لنا شعرا
وكل إناء بالذى فيه راشح ... وان حقول الرمل لا تنبت الزهرا
وانك عدل فى اقتسامك فرحتى ... تناولت شطرا ثم ناولتنى شطرا
وشعرك يا حر الكلام أعده ... لآلىء حب منك قد توجت حرا
وإن كنت تخفيها على الناس غيرة ... وعاشت كغيد الظل لا تبرح الخدرا
فما كان أغلاها على وإنها ... لأعظم مما باعه مادح قدرا

تونس فى : 25 – 6 – 77

جعفر ماجد

الأبعاد الرمزية لمسرحية شهرزاد

بقلم : عبد العزيز الهاني

ان اى قارىء للمسرحية الذهنية لتوفيق الحكيم ـ شهرزاد ـ اذا برىء من بلادة الحس واعتلال الشعور ـ لن يأمن من حال طمأنينة نفسية ولذة فنية اثناء مطالعة هذا الاثر لاسباب لا تعود الى مضمونها الرمزي وشكلها الذهني في رأيي بقدر ما تعود الى هذا الطابع الشرقي الذي يلقاك منذ الصفحة الاولى الى آخر لحظاتها ، ويظهر سواء في اطارها المكاني او اطارها الزماني وما يعمرهما من اشخاص ثانويين ورئيسيين وفي الكلمات للمفاتيح التي تتردد في مناظرها او في نهايتها .

1) الاطار المكاني :

اما اطارها المكاني فلن تجدك الا بين صحراء ممتدة ومتفتحة لقيظ الهاجرة ولن تبصر الا قصر ملك تصاعد منه موسيقى رائعة توحي بمصير فاجع كما تصاعدت من خان أبي ميسور رائحة المخدرات القائمة في وجه كل بطل شرقي يرنو الى آفاق المعرفة والسيطرة على الكون .

ولن تجد الا خدر شهرزاد الذي يوحي منذ بداية المسرحية بانتظار أحداث مأسوية .

(*) القيت هذه الكلمة التمهيدية في مستهل الندوة الادبية التي عقدها نادي البحوث والدراسات بمعهد ابن شرف حول الابعاد الرمزية والفلسفية لشهرزاد يوم 5 ماي 1977

2) الاطار الزماني :

ولم يسلم الاطار الزماني من هذا الطابع الشرقي بغروبه الموحش ولياليه الصاخبة بموسيقى المجون والمغامرات في قصور الملوك والامراء قديما وحديثا (في بعض الاماكن) ٠

ألم تكن المسرحية زمنيا امتدادا لمسيرة شهرزاد في قصص الف ليلة وليلة الموروثة عن الثقافة الفارسية وقصصها العجيبة التي سحرت القراء منذ القدم ابتداء بالملوك وانتهاء بالرعية والمعذبين في الارض ٠

لقد كان الاطار المكاني والزماني بسائر عناصرهما الثانوية كالابل والسيف والجلاد وآلات التدخين تبرز نمطين من الناس متمايزين ماديا ومعنويا وفقا لطبيعة المجتمعات الشرقية المبنية عادة على طبقية واضحة وان ادعت بعضها الشيوعية العلمية والمساواة المطلقة بين الافراد ـ نعم ان طبيعة الاحداث التي دارت حول شخصيتين رئيسيتين هما شهريار وشهرزاد اللذين اخذا نصيب الاسد في الرواية نفسها تؤكد التناقض الطبقي الموجود في البلاد الشرقية حيث ما يزال الايمان بالبطولة والابطال وبالاصلي والثانوي وبالجوهري والعارض ، وبالخالص والزائف ٠

الا نجد ملكا وملكة يجسدان بشعورهما ومسيرتهما الفكرية ومغامرتهما الذهنية الصراع المستمر في وجدان الشرق للتخلص من الاسطورة والحلم والكهف والماضي ليتنفس هواء العصر ـ وان اعتراه تلوث احيانا ؟

ألا يمثل الملك والملكة ووزيرهما المخلص الى حد الغباوة نمطا اجتماعيا متناقضا مع نمط آخر يمثله الجلاد والعبد والساحر والعذراء وغيرهم من الذين لا يستمدون وجودهم ومعناهم الا من الصلة التي تربطهم بالاشخاص المحورية ؟

3) الكلمات المحورية :

الا ان ما يعطي للمسرحية بعدها الشرقي ايضا هو تردد الكثير من الالفاظ المفاتيح المحورية التي تكاد تتحكم في سير الاحداث وسلوك الاشخاص وكانت مأخوذة من القصص الشعبي وأسطورة الف ليلة وليلة حينا (كالسفر والابل ـ والساحر والعبد الاسود ٠٠) ومن القاموس الصوفي حينا (كالرحيل والعقل ـ والمعرفة والمادة والشوق) ٠

الم يكن التصوف نفسه مذهبا شرقيا مبنيا على الزهد فى اللذائذ وفى مظاهر الترف والحضارة للاغراق فى العبادة والتأمل والتهليل والتكبير واقامة الشطحات والحلقات ؟ فى الواقع ان بعض النقاد يرجعون اصول التصوف الاسلامى الى جذور شرقية هندية ، وقد لعبت هذه الالفاظ دورها فى صياغة نهاية المسرحية التى كانت وفية هى الاخرى الى الروح الشرقية ٠

4) **النهاية المأسوية :**

ان فى بقاء شهريار « معلقا بين الارض والسماء ينخر فيه القلق » على حد تعبير شهرزاد ليحدد تحديدا واضحا الروح الشرقية التى تحكمت فى نهايتها وفقا لنظرة المؤلف لمكانة الانسان فى الكون ولقوله بالتعادلية اى بالصراع بين الشهوات والمطامح الفكرية ٠

فلم يكن **الحكيم** اذن فى رسم نهاية مسرحيته الذهنية الا **مؤكدا على ما** آمن به من نظرة شرقية هى نتيجة لازمة **عن التيار الملحد المؤله** للانسان والساخر من فكرة الاله والمنتشر **فى** اوروبا المصنعة وقد مثله **خاصة بكتابه** (هكذا حدث زاردشت) **وعن التيار الشرقى** الاسلامى الداعى الى قبول الانسان بحجمه الحقيقى دون تزوير او تضليل والى الاسلام الى المشيئة الالهية التى ترسم حد الانسان وتصوغ له مصيره ، (فيظل يعيش ويريد ويكافح فى اطار قوى غيبية غير منظورة) ٠

ولن تأخذ هذه الابعاد الشرقية قيمتها الفنية الا اذا علمنا ان هذا التيار أثر فى كتاب المسرح العربى المعاصر شرقا ومغربا ٠

فكان السد فى بعض اطواره امتدادا لمأساة شهريار محتوى وطابعا ٠

لكن الا يجب تحديد الابعاد الزمنية والفلسفية حتى تتضح العلاقة بين محتوى المسرحية وطابعها الشرقى ؟ ٠

ع٠ ه٠

نحن الموكب .. او نتحرك !

شعر : الصادق شرف (أبو وجدان)

أمتـى لا تـرفض حـركية الهضـم ٠ ولكنـا نحـن من جردهـا من شاهيـة الحـركة والاخصـاب ٠ ولم نصرفها٠٠ فانصرفت عنا كالانثى تجاه خصى زنيم ٠

★ ★ ★

شفتى لم تستطع امعاؤها هضم الحروف ٠؟
أم لسانى علقته (الام) فى بعض السقوف ٠؟

يالأم شنقتنى من لسانى ٠! مثلما يشنق للسلخ الخروف ٠٠
كان سلخا ٠٠ لكن (الام) تسميه : « صروف » ٠

لم نصرفها ٠٠ وفيها نحن صرفنا الظروف ٠٠
فهى فينا ضيفة ٠؟ أم أننا فيها الضيوف ٠؟
موكب نحن ٠٠ تحركنا ٠٠ ولكن ، لا على كل الصفوف ٠

★ ★ ★

شفتى لو انها كانت حديدا ٠٠
فهى لا شىء ٠٠ وقد تصبح أكسيدا صديدا ٠٠
حين لا يبعثها الحداد مخلوقا جديدا ٠٠
أمنا منها لنا قد عبدت دربا مديدا ٠٠
لم نواصل دربنا الحر ٠٠ فاصبحنا عبيدا ٠
وتمزقنا ٠٠ وما زلنا ٠٠ وكدنا ان نبيدا ٠

موكب نحن ·· ولكنا شطرنا اليوم هارون الرشيدا ·

* * *

يا لسانا ·· فى شفاهى ·· ذهبى الغمد ·· والسيف ذهب !

كيف تبقى مغمدا ·؟ والعصر بالسيف انقلب !

فلنتذب ·· فالذوبان الحق ·· حق مكتسب ··

ولنصغ من (ذاب) مخلوقا جديدا يا عرب

فلهيب الصوغ لا يأتى على غير الحطب ·

شفتى من خشب ··؟ أم اننا نحن الخشب !؟

موكب نحن ·· ولكنا وقفنا · فهى ، أم نحن السبب ·؟

* * *

نحشر الاخشاب تحت القدر نارا ·· ودخانا ··

ونصب السيف فى القدر ·· ونرجو الذوبانا ··

غير أنا لم نجد فى القدر الا الغليانا ··

لم نجسمه ·· وفيه نحن جسمنا الهوانا ··

نحن من ازكمنا كى لا نشم الاكسجانا ··

وادعينا ·· اننا قد فاتنا الركب زمانا ·

موكب نحن ·· ولكنا وقفنا عند كانا ··

حيث كانا ·· كيف كانا ·؟

* * *

واحتقرنا ثغرها ·· فاحتقرتنا امنا بعضا بكل ··

بين اسماء مسمى واحد تلهو بنا بعض الجمل ··

(صحفى ؟ أم صحافى ؟) خلاف فى هدوء مفتعل ··

وابتغى (المجمع) ان يصلح فاختل الخلل (١) ·

فاذا الفعل انفعال ·· واذا الجد جدل ·

---

(١) يقال : ان لمجمع اللغوى بالقاهرة التام طويلا يبحث فى كلمة (صحفى أم صحافى) أيهما الأصح ؟ وانفض المجمع متفقا على عدم الاتفاق ·

ندعى الوحدة ٠٠ والواحد من قومى دول ٠٠
موكب نحن ٠٠ ولكنا وقفنا ٠٠ مل منا الوقف مل ٠

★ ★ ★

يدعى الواحد منا : انه نور على رأس علم ٠
حائط من ذاته كان انبنى ٠٠ كيف انهدم ٠؟
أين من يبنى على الانقاض جسرا للعبور الأم يا أم الأمم ٠؟؟
ويقوم القول عملاقا ٠٠ كأمواج خضم يحتدم ٠٠
فاذا ما وصل القول الى الفعل انقزم
فاذا نحن على خطى نقيض نزدحم ٠
موكب نحن ٠٠ ولكنا وقفنا نندب الامس القتيلا ٠٠
واسترحنا فى المواويل طويلا ٠٠
صهل التاريخ فى اسماعنا الآن صهيلا ٠٠

★ ★ ★

وافقنا فاذا الحمل على كاهلنا جد ثقيل ٠٠
ومضينا نقطع الدرب قتيلا حاملا ألف قتيل ٠٠
يسقط الواحد منا مثل جذع النخل يعلوه هديل ٠٠٠
موكب نحن ٠٠ حفيد الموكب الداخل فى التاريخ باب المستحيل ٠
موكب نحن ٠٠ قهرنا المستحيل ٠٠
وانطلقنا للوصول ٠٠
ووصلنا فى شمول ٠٠
موكب نحن ولكن « هلاكو » ساكن فينا ٠٠ ألا ويح المساكن!!
كم تحرقنا من الداخل والخارج لكن ٠٠ !؟
لم نحرك أى ساكن ٠٠
لو تحركنا لحركنا السواكن ٠٠
لشنقنا الزمن المشبوه فى كل الاماكن ٠٠

تونس (منزل تميم) 4 ـ 2 ـ 1969

ص٠ ش٠

هو + هي

قصة : الهادى حمودة الغزى

هو = الشباب والمال والتفوق ثلاثة اجتمعت عنده فما تغير طبعه ولا انقلبت حياته

هى = ايضا الشباب والجمال والمال ثلاثة ما اجتمعت فى انثى الا الهبتها ، وتظافرت عليها فما أبطرتها ولا غيرتها فى حياتها

(هو + هى) = كل شىء طبيعى فى حياتهما كأن لا جمال ولا مال ولا اغراء ولا شىء من هذه الطفرات القائمة من حولهما على من حولهما فى رحاب الكلية وحدائقها وزواياها وخباياها .

الحياة من حولهما دوامة مجنونة لذة وجنون وبهجة مستهترة وحياتهما جد فى المسؤوليات وجد فى تعاطى متطلباتها وأناقة فى هذه الحياة الجامعية ، سكينة جامعة وتأمل عند كل حصة وعند كل درس وعند كل جرجرة فى السياسة والثورية والطليعية والرجعية

هو = يطرف لدنيا فى حياته الداخلية ومع من يعايشهم خارجا بعين جانحة وقلب قفل فاذا الصباح والماء عنده سيان واذا الطريق والساحة وهو يخوض أبعادها فارغة أم عاجة ، هادئة أم يصفق فى أنحائها هدير الغاضبيين أو الراضين كل ذلك عنده سيان وكثيرا ما حاذى بائع الدوريات أو حاذاه بائعها فتراه جامد الاسارير وقد يبتسم ولكن ابتسامته متجعدة القسمات فيها جد ولكن بلا اثارة وفيها تصريح ولكن على لبس ملفوف .

هي = على طول المدى كأنها عين الرتابة صباحها ومساؤها توأمان حقيبة طالبية أنيقة من ذا يدرى ما بها ؟ ذات سير حلقى مصلوبة به على كتفها وبعض الكتب والمذكرات اعتادت الاستلقاء على الذراع الايسر منها كأن بها شوقا للخصر التائه والنهد الاشم ، وكوكبة من أترابها قد يتهادين بها فتبدو عروس فتنة مغمورة فى باقة من نور ، وكثيرا ما أعجب بها ومنها زملاؤها فيتغامزون بخبث محاولين ادماجها فى المدمجات فلا تراها ترضى أو تنكر أو تحتج . وهى بالمدرج شمعة منتصبة لا تلغو حين يكون الدرس ولا توسوس حين تكون الوسوسة ومتى حاورت فى مسألة احسنت وألمت بكل شواغل النخبة فتدور العيون وترتد بالاعجاب

هو = كثيرا ما عاكسه أصحابه وأغروه ، وكثيرا ما تغامزوا عليه محركين وكثيرا ما أغروه وأغروا به فتراه يتخلص بحلو الاسلوب اللبق فيتركونه ولباقته وقد يتحوطونه كما يتحوط الحجر الاسود وفى نفوسهم اكبار وفى قلوبهم به اعجاب وقد يفاجأ من بعضهم بما يربك بالاثارة والامعان فيها ولكنه ـ بأناقة اللبق ـ يجعله ينتهى من حيث يبتدىء ويكفن كل تخابثه بابتسامة هزيمة يوزعهما على كتفيه المرفعان ، ويستمر هو ...

هي = لكم اعترض طريقها خنافس الشباب المتخثر بما استقر فى ذهنه المريض والصحيح أن الطالبات شاريات بائعات للذاذة بالمجان على غير مهر سوى السهرة الوحمى واللقاء الراقص تحت الاضواء الباهتة وفى الردهات المبهورة ، وكم كانت تشمئز حد الغثيان حين ترى عوارض هذا السلوك وهى فى الطريق او على مقربة من المتهالكين من الطلبة فتجدها تتمسك بالمذكرات تورقها متشاغلة وأحيانا تنسحب فى هدوء لتندمج فى بعض أترابها ، وقد تجد نفسها وهى تنسحب مما يزعجها لتجد نفسها تغرق فى ثرثرات صويحباتها وما يخضن فيه من أحاديث المراهقة المتأخرة المواسم وأقاصيص المغامرات مع السواح الاجانب حين ينصهرن فى جحيم الرحلات فتراها كعادتها تلك تلجأ الى كراس تقلبه أو كتاب تتصفحه الى أن يتلاشى بارد الكلام أو يحضر الاستاذ . وهذه العادة لطالما جلبت عليها النقمة من كثير الطالبات أول أمرها ، لامساكها وعدم مجاراتها لهن فيما هن فيه ، وكن يعددن فى موقفها المنحاز شذوذا فى قاعدتهن غير أنهن لم يلبثن طويلا حتى رجعن اليها صديقة حميمة خاصة اذا جد خلاف بينهن أو اضطربت حياة الجنس التى بها يكلفن

ولم يكن يحزنها أو يفرحها أمرهن ساخطات أو راضيات حتى المتمذهبات والمتمذهبين من زملائها فان مواقفهم أيضا شبيهة بمواقف أولئك واذا كان

عدم مجاراتها لهم ولهن في الجنس والطليعية ـ تقليعة ـ الشبـاب الهزيـل ـ فان ذلك لم يضايقها يوما ولم يحرجها أمرهم وأمرهن في الجنس والسياسة الطليعية أي تعليقة الشباب المكبوت وكان رأيها دائما : « الحرية كساء الجميع فلم تتوسل بما عندك على ما فيه لتفقدني الذى أنا فيه وهو ما هو »

والمهم عندها انها للجميع مثال وتعاملها بالمنطق الذى ليس له تأويل .

هو = أيضا كان يتعرض لمثل تلك المشاكسات ولكنها أعـراض غـثـاء يتعرض لها رجلا وبها يغرى ولكنه رجل ، وتمر به رياح المذهبيه الرامحـة فيجتازها دائما ولا تجتازه ويعلو للتيار لا لينثنى بل ليثنى . وأمواج الجنس والطليعية المزعومة تطوى ولا تنطوى ولكنها يوما ما غمرته ولا طـوته أو انطوت عليه

(هى + هو) = لهما حدث كل هذا ولم يمنع مـوقفها الحاسم وموقفـه منذ الابتدائية المتأخرة والثانوية المراهقة والعالية المتخمرة من أن تتسـلـل لها وله فى ركن ما أو خلوة ما بعض الافكار أو التساؤلات : ما أمر أولئـك وهؤلاء وما أمرها ؟ وأيضا ما أمره ؟

اذا كانت الحياة هى تلك وكانت حياة الدراسة هى أيضا كتلك فلم اذن لم تكن كاللواتى كن ؟ وهو أيضا لم لم يكن كالذين كانوا ؟

لكنها لا تلبث أن تسترجع القوى لتقف متحدية صارخة فى الاعماق من فوق الشموخ لكن أكون ماذا ؟!

أما هو فرجل تنتابه الرجولة الملحاح ولكن عقله ، سريعا ، للحران ليوقف به التيار المضطرم واذا به سائل ملحاح ؛ فعلى افتراض التسليم أكون ماذا ، اذن ؟

هى = « لا أتصور يوما أن أكون منديلا على مائدة كمـا كـانت » أمـى « تقول » .

هو = عودنى أبى أن يسر فى أذنى « لا يمكن أن تكون يوما زبـونا على كرسى مدسوس » .

هو + هى > اجتاح البحر الطامى فى الظهيرة كل درب وساحة وكانا معا على باب الجامعة يهمان الهم الاخير ولكن الزبد الغامر يجتاح الافق المندول ويأخذ الطمى من حواشى الشفق الكظيم . وتسلمت الايدى الساحبات أقطار الضميرين للمنتهى وآذن مع المساء التلاشى غير ظلال سندسية تنتصب على قوس أخضر لماع . ..

هـ.ح.غ

رسمها ... نجود الفضة والبرق

شعر : محمد أحمد القابسي

فـاتحـة :

طازج حزنى ...
من عروة الماء المتمسك بالعتمة يأتى
ينفر اشتهائى وبوح الطير الحاملة من نجود الفضة
والبرق خصلات غضه من وجه الحبيبة الخصب
وجه الحبيبة المشجر بالرغوة !

....

طازج حزنى
وها مهرة الرؤية
خضراء كالحلم ، حمراء كالبحر ، زرقاء كالشمس
تأتينى المهرة من غابة الليل ، فأطوقها خلاخيل
من جسد المحار والعشب :
أنا جئت

جـاءت !!
يبدأ الآن زمن النشور
تتسع دوائر الارض

فهذا انشادى كالكشف
وهذا طريقى الى البدو ٠

— II —

أمدائن الحناء
أنا جئت ، وهذا البحر يطوقنى بالخصر المخضب
وهذا كفى فى الكف
وسلامى عرض البحر والعمق :
حرائق هى الاشواق على الشفاه
وغزال شارد هو الحب

....

أنخل الواحات
زورقا كان البوح
والريح وحشية
وتلك الضفاف غامت بين اللقاء والبعد
أقـابس !٠٠
كيف يكون اللقاء
حين تطول المسافات بالبدو ؟؟

— IV —

وجههـا بين اللســان وبين الكـلام !

أعروس الرمل
بالسعف الفارع فى واحة القلب
بالمساء فى الاحواش
بياسمين العشايا
بأشرعة الزوارق العتيقه
بالبلح ٠٠٠ بالأحراش

أنا ما غبت ··· وهذى يدى ينفر منها التمر
يتوهج من الوجه المشروق بالدمع
فرح بدوى ··· يخضر من الجبين زعترا واكليلا
يتعرى كماء الخليج
كالنخـــل :
فأنت معى !!
(بين اللسان وبين الكلام دما حاميا)
وحين أبحث عن وجهك
أسافر فى النجم ،
أنت معى !··
ومن زمن بليغ التوجس
أنا متعب ···
يبللنى مطر يتدفق بالتأسى
يزرع الوجه بساتين من الغربة فى الوطن :
هى المدائن ·· أماه ··
فى الطلق تجهضنى
تبكينى مساء عرسى
صباح فرحى
هى المدائن مفردة فى الخيانة
ملغومة بالتعهر ··
فلا تسألينى كيف أتيتك ؟
إنى أراك ··· (وأنت معى)
وهذه عباءات الأهل
وها هموم الوجوه ملفوحة بالاسمر :
حناء على الأكف
حناء على الحيطان
حناء فى الأعين

فيا عروسا بالأحمر
وجهك الشمس ... رغم الظلام
وأنا المهتدى !!

— V —

مملكـة الطيـر والمـاء

قباب الصوان ، هى الأزمنة فيك
والمجد عربات تحملها خيول من ذهب :
فى الشارع الأول
مر « أبو لبابه » يرحل فى الضوء
يشعل المد أخضر وبنفسجيا
يحلم الأرض بالمخاض النبيل
وفى كل الفصول يطوقها بالبهاء :
مملكة الطير أنت
مملكـة المـاء
فيا ظفائرك ايتها العروس
ليلية تنسدل على العشب
يبتدىء منها كل شـىء :
النوق تمر
ترفع الحداء الى السماء !
يصهل جواد جامح
متشح وجه الامير بالعشق
متشح حلمه بالحليب المقدس
النوق جاءت .. جاء الامير
فيا أنت مملكة الحب سيدة المساء !!
عاشقة فى كل الأزمان
تقرئين كتاب الحب فى الغسق ...

والأخضر سادنا كان
وكنــا …
وها نحن التقينا
صبوة واحدة تشعل الرمل بالنشيد
تهز البحر محيطا
وفى كل الموانى
وكل الليالى
تبقين قمرا فى القلب
صندلا فى الغناء

....

رسم الوجه فى القلب
وفى العظم نجود وعباءات ونوق
وشيح وصبار ..
وطائر ماء !!

....

عاشقة تقرئين كتاب الحب
وكتاب التوحد أنت
خضراء كاعشاب البحر
حمراء كالصبوة فى الصحراء

— VI —

حـد السيـف … ورد فى الكبـد

فرس ينداح من البحر
من زبد الموج غرة الفرس
وعلى سجاد البكاء يركض قلبى مع الفرس
هناك الافق …
عرس الشمس والغسق

وهذا الهلال يملأ أهلينا
بالحلم البكرى
بالغنـاء
والفـرح
رسم الهلال ... « جبين فاطمه »
كالفضة ... فى خلاخيل العاشقه
أيها الهلال
وفى الذاكرة
طعم الاجراس
الخيـول
والخطاف لا يأتينا .
فانت الرسول
ومن غيرك ينشر علينا رائحة المطر

* * *

فرس ينداح من البحر
يركض الى الأفق
من ريش الطير غرة الفرس
من زبد العطش
وعلى سجاد اللهب يركض قلبى مع الفرس
هاهنـا ...
رشم النوق على الهضاب
ووشم الشيح والصبار
وعيون النسوة مكحولة بالحلم الأبدى
بيوتنا تشعل الزيت مساء
وتكنس حلما وانتظارا مد الأفق
أيها الرمل الطافح بالاغتراب

أين أحبابى ؟
آسنا ... جئتك فهل تطهرنى ؟
....
حد السيف ورد فى الكبد
ورمحا كان وقت التغرب
فدعنى أتوضأ بالهجير
وأطرح ثوب الخيانة والتعهر :
أيها النخل
أيها الرمل
أيها الفرس الجامح
فلاح أنا غربته الريح
وتاه زورقه فى الجزر
ومن زمن ثلجى التواريخ
محروث صوتى بحزن المدائن
....

طائر ماء .
وفى كل المحطات عرش رسمك
فها قصائدى أسباخ
وها نشيدى طافح بالموعد.

م. أ. ق.

صيف 77

التربيع والتدوير

مسرحية: عز الدين المدني

شكوى العبد الفقير الى ربه تعالى
أحمد بن عبد الوهاب
رئيس ديوان الانشاء والعلامة
للخليفة الواثق بالله العباسي (؟)
أيده الله
يرفعها بعين باكية دامية هتانة
وبفؤاد مفجوع مهموم
يقطر لوعة وأسى وحسرة وأسف
الى رب العالمين
العادل المنصف الحاكم الحكيم الرحمان الرحيم
بعبده المظلوم

أحمد عبد الوهاب

ويرفعها كذلك الى مجلس المظالم
وقضاته السادة النجباء الجلة الفضلاء
أعانهم الله في مسعاهم وسدد لهم خطاهم

ورئيسهم سيدنا ومولانا الخليفة
خليفة رسول الله
أيده الله تعالى فى الاولى والآخرة
ليزيل بسيفه الباتر القاطع
عن رعيته المطيع

احمد بن عبد الوهاب

الظلمة والغمة
ويرفعها أخيرا الى كل مؤمن غيور
على دينه ودنياه
من كل ظالم دجال وكل كافر خبيث محتال
والله المستعان
وحسبى الله ونعم الوكيل
نعم المولى ونعم النصير
وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين
والحمد لله رب العالمين
آمين
مسرحية ذات شخصية منفردة (*)

* * *

أحمد بن عبد الوهاب (يصلى)

* * *

قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس ٠

* * *

(*) يحسن بالمسرح العربى اليوم ان يستعمل بعض تقنيات الشعر العربى القديم كالمعارضة والتشطير والتخميس الخ ٠٠٠ بعد أن أثرت تقنيات القصة الحديثة المسرح العربى الحديث ٠ وهذه المسرحية هى « **معارضة** » لرسالة التربيع والتدوير للجاحظ (نشر شارل بيلا) ٠ ع٠م

أحمد بن عبد الوهاب (يبتهل الى الله)

اللهم إنى إليك الجأ ، فثبت قدمى • اللهم إنى بك اعتصم فيسر لى أمرى • اللهم إنى إليك الجأ ، فثبت قدمى • اللهم إنى بك أعتصم ، فسير لى أمرى • اللهم إنى لديك أحتمى ، فبرد لى صدرى • اللهم إنى بك أهتدى ، فانر بصيرتى • اللهم إنى بلغتك أنطق ، فحل عقدة من لسانى ، واهدنى ، ووفقنى ، وأدركنى برحمتك الواسعة يا خير الراحمين •

إلاهى ربى ، عززنى ، فانى ضعيف • أرزقنى فانى فقير • أجبرنى فانى مكسور • أنصفنى فانى مظلوم • ايدنى فانى مقهور • خذ بثأرى فانى موتور•

أنصرنى إلاهى ربى على كيد الكائدين ، وحسد الحاسدين ، وشماتة الشامتين ، وظلم الظالمين ، ونفاق المنافقين ، وجهل الجاهلين ، والحاد الملحدين، آمين يا رب العالمين •

إلاهى ربى ، أنت الحاكم وأنا راضٍ بحكمك • أنت العادل وأنا صابر على قضائك • أنت المنصف وأنا خاضع لانصافك وقصاصك • فلتكن أرادتك نافذة يا ذا الجلال والاكرام •

* * *

أحمد بن عبد الوهاب (فى طريقه الى مجلس المظالم)

أتردد منذ أسبوع على المجلس ، ولا أحد يستمع الى شكواى ! لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم • منذ أسبوع وأكثر من أسبوع ، وأنا أتردد على مجلس المظالم حتى أهملت شؤونى ! أتردد على مجلس المظالم لان لى ثقة بمجلس المظالم ، لان لى ثقة مطلقة بقضاة مجلس المظالم ، لان لى ثقة عمياء باحكام مجلس المظالم ، حيث يعلو الحق ولا يعلى عليه ، حيث جرد أمير المؤمنين سيف العدل على الظالمين • وأنا أقول بالمثل السائر : ما ضاع حق وراءه طالب • وأنا طالب حق يا مجلس المظالم ! انتظر طوال الاسبوع على أحر من الجمر ، ونفسى تقول لى : « يا ابن عبد الوهاب ، لا تتعجل ، ان العجلة من الشيطان ، سيأتى دورك ، لا محالة ، تمهل ، ان عاجلا أو آجلا ، لا بد ! » لا أسمح لنفسى بأن أصرخ فى وجه القضاة ، ولا بأن أبجل شخصى على الناس ، معاذ الله ! فالاول بالاول ، ثم الثانى بالثانى ، ثم الثالث بالثالث ••• اذن ، أترقب دورى بكل هدوء ، اذ لى شهامة ، ونبل اخلاق ، نعم ، وكرامة ! أترقب دورى من الفجر الى العشاء بكل امتثال ، لانى أحب النظام • أترقب دورى كامل الاسبوع بكل اتزان ، فى شعور عظيم بالمؤولية • لكن إلام أترقب ؟ أفتح لى أبوابك يا مجلس المظالم !

* * *

احمد بن عبد الوهاب (أمام باب مجلس المظالم)

ما هذا الزحام ؟ لا أحب الضوضاء ولا الجلبة ! تفرقوا ، يرحمكم الله . ابتعدوا . ألكم أنتم أيضا قضايا مثلى ؟ عجبا ! . اذن ، القضايا متراكمة على مجلس المظالم ... أين القضاة ؟ أنت ، نعم أنت ، ما هى قضيتك ؟ نخاصمت زوجتك مع جارتها فلطمتها ؟! وهل هذه قضية ؟ وأنت ؟ غشك الخباز ؟! هذه قضية تافهة ! وأنت الآخر ؟... ما هى قضيتك ؟ اللصوص سرقوا صرة نقودك ؟ ما هذا الابتذال ؟ عليكم بمجالس القضاء الاخرى لتنظر فى قضاياكم الساقطة ! افسحوا الطريق لأحمد بن عبد الوهاب رئيس كتبة ديوان سيدنا الخليفة ، ديوان الانشاء والعلامة ، ليرفع قضية العدالة الى مجلس المظالم . الا تسمعون الى ؟ ألا تريدون أن أدخل للمثول بين يدى سيدنا الخليفة ؟ اذن ، فلتسمعوا منى ...

* * *

احمد بن عبد الوهاب (بين الناس)

هجانى يا ناس النجدة ، النجدة ! يا ناس ، والله ، انه هجانى ! الحقونى ! نعم ، هو ، هو الذى هجانى ، وبسهامه رمانى ! أبكى وأنحب ، فمن يمسح دموعى ؟ ماذا صنعت حتى يهجونى ؟ آه ثم أواه ! لم لا تتحركون ؟ ألم يفزعكم صراخى ؟ ألم يزعجكم عويلى ؟ أغيثونى ! إنى عبد ضعيف ! يا ويلى ، ثم يا ويلتى ، ثم يا ويلاه ! ألم يعجبكم نواحى ؟ ألم يطربكم نحيبى ؟ لا أحد يشفق ؟ لا أحد منكم يرأف ؟ أجيبونى ! بمن ألوذ ؟ والظلم مستبد ؟ الى من أشتكى ؟ والايمان غريب ، والحق مقتول صريع ، والاسلام ضائع بين القضاة ؟ أيعجبكم تراكم القضايا ؟ أراضون عن غلاء المعاش ؟ انصروا العدل ! طالبوا بالحق . أبكى ، أبكى . اللهم مزقه كما مزقنى ! اللهم أفضحه كما فضحنى ، وشتمنى ، وثلبنى ، وسبنى ، وعيرنى !

* * *

احمد بن عبد الوهاب (امام الخليفة رئيس مجلس المظالم ومستشاريه القضاة)

سيدى ومولاى خليفة رسول الله .

سادتى الجلة القضاة .

جمهور المجلس .

سيدى ومولاى خليفة رسول الله. لا استجير الا بك ، ولا أعول الا عليك ، ولا استند الا اليك ، ولا أحتمى الا بك .

انت الامام العادل الهمام . انت علم السنة ودرع المذهب ورمز الاسلام . انت رأس الكلم والكلام . أنت المجاهد المغوار المقدام . أنت النور المبارك الذى يهدى لانام . أنت ناصر المظلومين والمساكين ، ومنقذ الارامل والايتام . انت... بم أصفك ؟ وكيف اثنى عليك ؟ لسانى عاجز عن مدحك ، وتقريضك ، وشكر نوالك وعطائك ، والتنويه بسلطانك وعدلك .

فيا سيف العدل ، ويا لسان الحق ، انصفنى من خصمى وعدوى !

★ ★ ★

أحمد بن عبد الوهاب (يشرح قضيته)

ابسط قضيتى .

قضيتى بسيطة ، على جانب وافر من البساطة ، فيها كثير من التبسيط . لا أطيل عليكم إذ أنى أحب الاختصار فى كل شىء ، والايجاز فى الخطاب . قضيتى تتلخص فى كلمتين فقط ، لا أقل ولا أكثر ، فى كلمتين اثنتين لا ثلاث ، لا أربع ، كلمتين . ارجو الا أزعجكم بالتفاصيل ، إذ لا فائدة فى التفاصيل التى لا تجدى نفعا ، ذلك انى أحب الدقة وأكره الخلط ، أحب الهندسة وأكره البلاغة ، أحب النظام وأكره الفوضى . تلك هى سبيلى فى الحياة الدنيا . ينبغى ــ اذن ــ ان أدخل فى صلب الموضوع . انى متأهب لشرح قضيتى البسيطة . طيب ! لكن كيف أبدأها ؟ على كل ، يجب أن أشرع فى سردها . القضية هى : كيف ؟ ومن أى جانب أبدا ؟ هذه مسألة تحيرنى كثيرا ، ولا تدعنى أنام فى الليل ولا فى النهار . ما رأيكم ؟ لو أبدأ بسرد الحكاية من أولها الى آخرها ؟ دون التعرض الى التفاصيل المزعجة طبعا ! بالترتيب ؟ كما يفعل المؤرخون والاخباريون سنة سنة ! حتى تكون فى اذهانكم أوضح ، والى قلوبكم أحب ، وبها أعلق ، وفى عيونكم أظهر وأجمل . نعم سيدنا ومولانا الخليفة ، نعم ، انى أسرع ، انى أسرع ... الحقيقة أقول : القضية ، قضيتى أنا ، بسيطة على غاية من البساطة ، لكنها معقدة فى الحين نفسه .

نعم معقدة ! لا تخش أن أطيل عليك . نعم ، هى معقدة . تلك حقيقة يجب أن أصدع بها . وهى متشعبة ، وصعبة أيضا . ليس ذنبى اذا كنت .. نعم ،

نعم ، لا تخش · وعدت بالاختصار والايجاز · نعم ، فهمت كل ما تقول · ووعيت كل ما تشير اليه ! أمرك مطاع ، سيدنا ولولانا الخليفة · انت السيد وأنا العبد · لكن ، ما ذنبى ؟ اذا كانت قضيتى معقدة فلأن الزمان معقد ، اذا كانت قضيتى متشعبة فلأن الحياة متشعبة ، اذا كانت قضيتى صعبة فلأن الدنيا صعبة · اذن كيف أبدأ ؟ وكيف انهى ؟

* * *

أحمد بن عبد الوهاب (يلخص قضيته)

اذن ، اذن ، بين قوسين أحب اذن ، اذن فى كلمتين فقط ، لا أكثر ولا أقل، ألخص قضيتى فى خطوطها الكبرى : اذن ، رجل كتب كتابا عنوانه التربيع والتدوير هجانى به ·

اذن ، أدينه بادانات خمس :

أولا : ضحك على شخصى ·

ثانيا : تهكم على نسبى وحسبى ·

ثالثا : سخر من منزلتى ·

رابعا : ازدرى منصبى ·

خامسا : احتقر علمى ·

اذن ، جعلنى مضغة فى افواه الكبير والصغير ، الفتى والشيخ ، الصديق والعدو · لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم · إذن !

هذه هى وثيقة الادانة · **(يقدم كتاب التربيع والتدوير)** ·

افتحوا الكتاب ، تصفحوا اوراقه · اقرؤوا · اعلن حكمك العادل سيدى ومولاى الخليفة · أنا راض به اذن !

* * *

أحمد بن عبد الوهاب (يجيب عن اسئلة الخليفة)

من هو هذا الرجل الذى تقول عنه انه طعن فى شخصك ، وثلب حسبك ونسبك ، واستهان بمنصبك ومكانتك ، وشتم علمك واستنقص أدبك ؟

الرجل طبعا الذى أدينه ،٠٠٠ ما هو الا الجاحظ ! طبعا الجاحظ ! ومن يفعل غيره هذه الفظائع والشنائع ؟ الجاحظ ! اذن ! ذلك القصير جدا ! ذاك القميء جدا ، ذاك القزم الازقم جدا ! القبيح ، الذميم ، الكريه ، السمج ، والعياذ بالله! وعينه ـ وانتم تعرفون عينه يا جمهور الحاضرين ـ عينه البشعة كالبيضة المروبة فائضة من رأسه ، وهى تضطرب بوقاحة وقحة ذات اليمين وذات الشمال كعين الحرباء ، كعين القرنيط ، كعين الوزغة ، تتلصص خلال الليل وفى اثناء النهار ، تسترق النظر الى الناس ، فى بيوتهم ، فى خلواتهم ، مع حريمهم ، تتسلل الى عوراتهم ، تتتبع سقطاتهم ، تقتفى زلاتهم ، تهتم حتى بما يخطر فى بالهم من نوايا ، تفضح ما فى صدورهم من كتمان ! ان هذا لمنكر يا خليفة رسول الله ٠ كيف تدع هذا الخليع يتجول فى مدينتنا بكل حرية !؟ اقبض عليه ! اعتقله ! ألق به فى السجن ! سلط عليه سوط عذاب ! عذبه ! حتى يستريح الناس من هذا الماجن الفاسق ٠

من حلم منكم بسكان كوكب المريخ ، وبعيونهم المرعبة الشنيعة ؟ تصوروا ان عيونهم عظيمة ، بل هى أعظم وأهول مما تصورتم ومما ستتصورون ، مستديرة تامة التدوير ، مقببة ناتئة القبة ، يابسة أيبس من الصخر ٠ لاحظوا ـ أيها السادة ـ انها دائما بارزة فى اليقظة وعلى امتداد اليوم ٠ وهى تتحرك مرة نحو اليمين وأخرى نحو الشمال تحركا آليا رتيبا ٠ فهى لا تعرف الاغفاء ، ولا الاغماض ولا حتى الاطباق ٠ لماذا يقول القائل ؟ الجواب : ليس لهذه العين جفن ، ولا اشفار ، لا مؤق ، و لا حدقة ٠ ثم تخيلوا انها ـ كلها ـ خضراء كقطعةمن الزجاج الاخضر ، قد توسطتها حفرة كالقمع ملولبة العمق ٠ ومن الغريب، نعم، ومن الغريب انها ترسل شعاعا أخضر فى الليل، عافانا الله واياكم من المناظر القبيحة ! تلك هى عين الجاحظ ولولاها لما كان الجاحظ ! ذلك ان الجاحظ كله عين فى أول الامر ، عين مريخية فى آخر الامر ٠ أفهمتم ؟ طيب ! اذن ، ياخليفة رسول الله لك سديد النظر فى ردع هذه العين الوقحة ، الزانية البشعة لانها سبة فى وجه الحياء ، والعفاف ، والجمال ، والكمال ، والتمام ٠ والله هو الجمال وهو الكمال ، وهو يحب الجمال والكمال ، لانه جميل وكامل ، وسبحان من خلق الجمال !

* * *

أحمد بن عبد الوهاب (يفاخر الجاحظ)

بما انه البادىء ، والبادى أظلم ، كما هو مشهور فى القول المأثور ، يجب على ـ اذن ـ أن أفاخره حتى آخذ ببعض ثأرى ! معقول أم غير معقول ؟ معقول

طبعا وأكثر من معقول ! انظر الى يا جاحظ ! انظر مليا ولا تكن جبانا ! أين أنت يا جاحظ ؟ استمع الى ، ودع عنك أنانيتك ، وادعاءك ، ووضاعتك ! تأمل فى الجمال الذى حبانى به الله تعالى ! وخل عنك حسدك ، وتبجحك ، وكيدك وغرورك ! فلقد كان والدى — رحمه الله وأسكنه فراديس جنانه — كان يدعونى : « يا أحمد يا جميل ! هل أنت عطشان فاشرب يا جميل ! انهض يا جميل ! انظر يا جميل ! هل أنت جوعان يا أحمد يا ولدى يا جميل ؟ كل البسبوسة يا جميل ؟! يا جميل ، خذ حذرك من المطر ، حتى لا يصيبك الزكام يا بنى يا جميل ! يا احمد ! يا جمال ! يا كمال ! يا جميل ! أين أنت ؟ عد الى البيت ولا تلعب مع صبيان الحى ! » أتتذكر يا جاحظ ؟ ماذا أتذكر ؟ لا بد انك تتذكر ! أتتذكر تلك المرأة التى حملتك الى صانع المصوغ ، وأنت حائر من أمرك ، وأنت تسألها وتلح عليها فى السؤال : « تريدين منى ماذا يا مليحة ؟ » وصلت بك الى دكان صانع المصوغ · ثم دفعتك نحوه وهى تقول : « يا صائغى ، انظر الى هذا الوجه ! انه من سكان كوكب المريخ !· أحب أن تنقش لى على الخاتم الذى ابتغيه وجها مريخيا كهذا الوجه ! » أتتذكر يا جاحظ كيف كنت فى غفلة من قبحك وبشاعتك ؟ ثم تأتى اليوم لتفاخر أحمد بن عبد الوهاب فى اناقته ورشاقته ، فى قده واعتداله ، فى حسنه وجماله ! هيهات ثم هيهات يا جاحظ يا بليد ! ما على ان ترانى عينك المنتفخة مريضا ، وان أكون فى حكم الناس أجمعين طويلا !؟ ما على ان ترانى عينك الكريهة غليظا ، وان أكون عند الله كاملا جميلا ؟! ما ذنبى ان ترانى عينك المريضة مستديرا مدورا وان أكون فى نظر العيون السليمة ظريفا مربعا ؟ ما ذنبى ان ترانى عينك المجنونة شبحا خيالا ، وان أكون فى الحقيقة انسانا فى أحسن تقويم ! ألم تسمع بالشاعر الذى مدحنى فقال : أنت المديد وانت البسيط وانت الطويل ، وانت الوافر ، وانت الكامل بعد ان فرغ من قصيدته العصماء ، وعجز عن وصف شمائلى وخلقى ؟!

* * *

أحمد بن عبد الوهاب (يجيب ثانية على اسئلة الخليفة)

صف له أدق الوصف ···

أصفه لك أدق الوصف ، وفوق الوصف ، وما وراء الوصف حتى يكون ماثلا لنظرك وبين يديك · أنا أعرفه ، وأعلم جوانبه الشىء البارز منها والمختفى · وهل ثمة أصدق من وصف العدو لعدوه ؟ وهل ثمة أكذب من وصف المحب

لحبيبه ؟ بلى ، والله ! (**الى الجمهور**) بين قوسين أحب استعمال بلى كأختها اذن لان فيها وقعا أصيلا فى العربية !

أحمد بن عبد الوهاب (يصف الجاحظ)

هو ، بالجملة ، حزمة من اللحم القديم ، والعظم المسوس ، والاعصاب الغالتة ، والبلغم ، والنجاسة ، والعياذ بالله ٠

هو ، بالتفصيل ، يقدر طوله بستة اشبار واصبعين ، ويقدر عرضه بشبرين ٠

هو ، على سبيل التشبيه والتورية ٠ عبارة عن حطبة قصيرة قديمة مفلقة مشلخة لا تصلح حتى لحمش النار فى جهنم ٠ مفاصله معقدة معلبة جميعا كالمرفقين ، والمعصمين ، والركبتين ، والكعبتين ، وحتى الرقبة ٠

هو ، عند علماء العهود الحجرية ، من سلالة الزواحف الضخمة البرمائية الطائرة التى ظهرت على البسيطة قبل ميلاد المسيح بأكثر من عشرين ألف سنة ، ثم تحولت الى الجنس الاعلى من سلالة القردة عبر خمسة آلاف سنة ، وأخيرا انقلبت الى سلالة البشر صدفة اثر تلاقح عجيب بين الاوز والضفادع ، استغرق عشرة آلاف سنة ٠

هو ، لدى علماء الخرافات والاساطير وأوهام الشعوب ، وثن لا يعبده أحد ، شيخ قبيلة لا يخضع له أحد ، ساحر لا يتبعه أحد ٠ فهو تعاويذ معكوسة ، وقرابين حرام ، وبخور فاسد ، وصلاة نفاق !٠

هو ، فى علم الحياة ، خلية تعطلت عن التجدد ، فركدت ، وتجمدت ، واهترأت ، بحكم تقادم الميلاد ٠ وهل تعلمون ـ أيها السادة والسيدات ـ انه عاصر نبى الله شيثا ، وسبق نبى الله نوحا ، وعاش الطوفان ! اذن كله تجاعيد ، اذن كله جلود ، اذن كله تكاميش وتكميشات ! والنتيجة ان الرجل لا يملك شعرة واحدة ، بل شعره مستعار ، قد لصقه على دماغه ووجهه وذقنه بالصمغ ٠! بل اسنانه ـ جميعا ـ مستعارة ٠ باختصار : فمه مستعار ٠ أنفه مزور ، وكله مزيف !

هو ، فى نظر علماء العلم الخيالى ، ما يسمى « بالانساوويد » الذى فلت فى تاريخ مجهول من كوكب المريخ أو من عطارد ٠٠٠ والدليل على ذلك عينه الخضراء المكركبة ، وجلده الاخضر الاحرش ، ونحولة اعضائه المطاطية ، وتجاعيده الهابطة الى حد قدميه ٠

انظروا الى شكله المستدير طولا وعرضا ، وجها وقفا ، سطحا وعمقا ! رأسه مدور وخط كتفيه مقوس · ظهره محدودب وظل ساقيه مقوس · عجيزته مدورة ، وذراعه اليمنى مقوسة واليسرى مقوسة ، جوفه مدورة ، وأصابع يده كقدم الاوز مقوسة !

ثم تأتى لتفاخرنى يا جاحظ يا ضفدع !؟

★ ★ ★

أحمد بن عبد الوهاب (يتحدى الجاحظ)

سيدى ومولاى خليفة رسول الله ·

أعضاء مجلس المظالم ·

أيها الجمهور ·

انه تحدانى وانى لأتحداه ·

لئن ربعتنى يا جاحظ ، فانى سأدورك · لئن ثلثتنى · فانى سأخمسك وأسدسك ، وأسبعك ، وأثمنك ، وأتسعك ، وأعشرك ، حتى اجعلك اجزاء لا تتصل ، ووجوها لا تنفصل ، فأوحيك رحيا تذروك الرياح ! يا جاحظ يا ضفدع ! والله شاهد !

★ ★ ★

احمد بن عبد الوهاب (يجيب ثالثة على أسئلة الخليفة ومستشاريه القضاة أعضاء مجلس المظالم)

هل انهيت ؟

لم انه ! وكيف انهى ولم آخذ بثأرى ؟ بل سأواصل ، سأواصل ، سأواصل·

صرنا نعرفه كما لو كان حاضرا بيننا ···

لا تعرفونه · لا ! دعونى أحدثكم عن أبيه !

لا تحدثنا عن أبيه ·

عن عمه !

لا تحدثنا عن عمه ولا عن خاله !

دعونى أحدث الجمهور عما يقوله علماء الوراثة فى الجاحظ ! كان والده يبيع السمك والقرنيط فى بطاح المدينة ٠٠ لا تقاطعونى !

لا ٠٠٠٠ لا ٠٠ نحن نريد منك ان تقدم لنا شخصك ٠

وكان عمه يبيع الاسفنج فى سوق الجمعة ٠٠٠ أناشدكم الا تقاطعونى !٠٠

لا يهمنا من أمر أبيه ولا عمه شيئا ٠

اذن أحدثكم عن أمه وعمته وخالته ، بل اذا أردتم ، اذاشئتم ، أحدثكم عن علمه المزعوم ٠ فلى مائة سؤال فى جميع الفنون والآداب والعلوم والكون والسماء والارض أحب أن أطرحها عليه حتى أفضح ما فى كتبه من سذاجات ، وترهات ، وكلام فارغ ! هل تعلمون ــ أيها السادة الجلة القضاة ــ ان المعلومات التى حشرها على عواهنها فى الحيوان والبيان والتبيين والبخلاء وغيرها لا تجدى نفعا ! هى للترك أحسن ! وهى للنسيان أفضل ! وهى للتلف احفظ وأبقى ! هل تعلمون ان التلميذ فى درجة الشهادة الابتدائية اعلم من الجاحظ ؟ هذه بديهيات أقولها لاذكركم بها ، اذن ، سأواصل هجائى يكلفنى ذلك ما يكلفنى !

* * *

أحمد بن عبد الوهاب (يقدم شخصه)

طيب ٠٠٠ أنا استجيب لرغباتكم والبى طلباتكم الموقرة العادلة الكريمة حتى تسير الاجراءات القانونية سيرها الطبيعى ٠ أنا انسان متواضع ٠ أنا انسان منضبط ٠ اعتذر لديكم عما بدر منى من حماس فى غير محله ٠ الحقيقة، انى معروف بالتواضع والانضباط لان من لاينضبط لايتواضع، ومن لايتواضع لا ينضبط٠ ـ على كل ، لست مثل الجاحظ الذى ٠٠٠ طيب ، أحب التواضع والمتواضعين ، أجدد اعتذاراتى اليكم ٠ ومهما يكن من أمر ، فأنا لست حقودا كنودا ٠ معاذ الله ! انما هذا الضفدع هو الذى ٠٠٠ والواقع ، أنا انسان عاقل ، مهذب ، خجول ، نعم خجول ٠ لكن ، لا أريد أن يعتدى على أحد ! حذار ثم حذار أنا عاقل رصين متى كان خصمى عاقلا رصينا ٠ اما اذا اعتدى على ، فيا ويحه ! لانى اعتدى عليه بأكثر مما اعتدى به على ٠ هذه صفة بارزة من صفاتى ٠ لا استطيع ان ابدلها ٠ لا استطيع ان اتنازل عنها ٠ من يتنازل عن صفاته فيبدلها ؟ ومن صفاتى أيضا أن قلبى أبيض كالحليب دائما ، والحمد

لله ، لا يكدره شىء ، رغم ما جرى بينى وبين الجاحظ من ... انتم تعرفون جميع تفاصيل الخصومة . لكن ، ثمة تفاصيل اخرى لعلكم - أيها السادة الجلة القضاة - لا تعرفونها انى اعرف الجاحظ منذ الصبا ، نعم منذ الصبا . لا تتعجبوا . أو تحسبون أن خصومتنا حديثة ؟ هى ، هى ! هو ، هو ، هو ! ها ، ها ! بل قضيتنا مزمنة ، قد ولدت مع ميلادنا ! لكنى أنا - والحمد لله - ولدت ، ونشأت ، وترعرعت فى احضان أسرة شريفة شرفها الله ، أسرة شهيرة وقاها الله من الحاسدين ، أسرة متدينة حفظها الله ورعاها . من لا يعرف منكم أسرة عبد الوهاب ؟ جميعكم تعرفون أسرة عبد الوهاب ومجدها الاثيل ، ونبلها التليد ! اما هو ، فعائلته وضيعة ، ساقطة ، فقيرة ، جاهلة ، رقيقة الدين والايمان ، والزواجرية افرادها جميعا من أولئك الذين يسميهم الناس الهملاوات ، والهمج ، والبكبك . ووالده ؟ ألم يكن يبيع السمك والقرنيط فى سوق الجمعة ؟ لكن ، هذه حكاية اخرى ... على كل ، فرائحة الجاحظ كانت دائما نتنة . قد ورثها عن والده النتن والعفن ! الصنان ! الصنان ! سدوا أنوفكم يا ناس ! إفيت ! الصنان ! أين رجال المطافى ؟ الجاحظ مصنان ! اغسلوه ! انه لم يذهب الى الحمام منذ عشرين سنة ! أين الصابون المسك ، والعطر ؟ وفمه أبخر ! لا تتكلم يا جاحظ ! انظروا انه يضع يده على فمه حتى لا يشم أحد فمه الابخر ! السواك ! السواك الحار ! لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

* * *

احمد بن عبد الوهاب (يقدم جده)

لا علينا فى الجاحظ ... ذكرونى ، ذكرونى بعد قليل ان احدثكم عن صفات الجاحظ فيما بعد ، نعم فيما بعد .. لنا عودة ان شاء الله .

اما جدى عبد الوهاب - رضى الله عنه - مؤسس الاسرة الوهابية العتيدة الشريفة الطاهرة ، فقد كان تاجرا فى السمك ، والعنبر ، وعود الند ، وحجر الجاوى ، والوشق والداد ، والعطر ، وماء الورد ، وماء الزهر ، والنسرين . اللهم صل وسلم وسلم عليه ! كانت رائحته زكية . كله يتضوع عطرا . اللهم صل على النبى ! قد قدم الى هذه المدينة من بلاد اليمن السعيد . فاصله من قضاعة . وقضاعة حليفة قبيلة لخم ، ولخم موالية لقبيلة تنوخ . وتنوخ لها قرابة وطيدة وثيقة ببنى العباس . اذن ، فأسرتنا - والحمد لله - تنتسب الى

بنى العباس ، والى دولتهم القوية ، المنيعة ، المجاهدة ، الشريفة ، العادلة يا سيدى ومولاى خليفة رسول الله رئيس مجلس المظالم !

نسيت أن أقول لكم — أيها السادة الجلة القضاة — ان جدى عبد الوهاب القضاعى اللخمى التنوخى اليعربى — رضى الله عنه — حين دخل لاول مرة هذه المدينة العامرة اقبل اول ما اقبل على المسجد الجامع ليصلى صلاة الفجر حاضرة · فرأى الظلام مشتملا ، والقناديل طافئة · فاندهش ، فتعجب ، فتحير : كيف تكون بيوت الله مظلمة وقت صلاة الفجر ؟ فصرخ فى المصلين : أوقدوا القناديل وأقيموا الصلاة ! فما كان منه الا ان أوقد القناديل والمصابيح والسرج والشموع — وهو يهلل ويكبر — فى كل ركن ، عند كل زاوية ، حول كل سارية من سوارى المسجد الجامع · وفجأة سطع النور ، وشع فى ارجاء بيت الله ، وانتشر لالاؤه · وبعد الصلاة اقسم ان يبذل كل ما تبقى من حياته الطاهرة فى سبيل ايقاد النور ، والمحافظة على قبسه ، والصيانة لشعاعه · بذلك ، عين جدى كبير الوقادين فى المسجد الجامع ·

أيها السادة الجلة القضاة ، أنا على يقين من انكم لن تزعزعوا ثقتى بكم لانكم لن تستمعوا لاقاويل الجاحظ · لاحظوا انى استعملت لن الزمخشرية بين قوسين فى كلامى · انه كذب على جدى وافترى ·

ماذا تقول يا جاحظ فى جدى ؟

تقول كبيرا · وأنا لا أحب ترديد الاقاويل والخوض فى القيل والقال · قال ·· قال ان جدى انا ، أتتصورون جدى صعلوكا مغامرا أفاقا ؟ غير معقول ! اذن كيف كان تاجرا ؟ قال أيضا : كان يهيم فى صحراء الربع الخالى ! غير معقول ، ثم نزح — حسب زعمه — الى هذه المدينة طلبا للقوت· هذا عبث ! حتى صادف ان وجد وظيفة وقاد فى بيت أحد أعيان المدينة · هذا افتراء · هذا ثلب · هذا طعن ينبغى الا اغضب · كأس ماء من فضلكم · لى ثقة بكم ينبغى الا اغضب لانى مريض بداء السكر — عافانا الله واياكم ···

والآن ، هل تريدون ان اذكركم ايضا باعمال والدى الجليلة ، وخصاله الحميدة ، وأياديه البيضاء حتى تعرفوا شرف أسرتنا ، ونبلها ، واستقامتها ؟

* * *

أحمد بن عبد الوهاب (يقدم والده)

بكل ايجاز ، أقدم اليكم شخصية والدى الفذة فى ترجمة حياة مختصرة

للغـاية ٠

ولد سنة ثلاث وعشرين بهذه المدينة التى ولد فيها سيدنا ومولانا الخليفة فى نفس السنة ٠

حفظ سنة ست واربعين القرآن الكريم فى أرقى كتاب بالمدينة ٠ وهو نفس الكتاب الذى حفظ فيه القرآن الكريم ولى العهد ابن سيدنا ومولانا الخليفة ٠

درس الحديث والفقه ودلائل الخيرات على أيدى أئمة الحديث والفقه ودلائل الخيرات مع وزير سيدنا ومولانا الخليفة ٠

عين سنة أربع وستين اماما فى مصلى العيدين ثم فى مسجد الجنائز ، وأخيرا فى مسجد الجبانة الشرقية ٠

توفى ــ رحمه الله تعالى وأسكنه فراديس جنانه ــ سنة سبع وستين ٠

لا فائدة فى الرد على الجاحظ الذى قال ان والـدى كـان متخلف الذهـن ، ضعيف العقل ، مريض الاعصاب ٠ هذا الكلام مردود عليـه لان والـدى أنجب رجلا عاقلا ، راجح العقل ، ذكيا فطنا ٠٠٠ وهوانا ٠

* * *

أحمد بن عبد الوهاب (يقدم نفسه ثانية)

هذا أحمد بن عبد الوهاب أمامكم ، ينظر اليكم من عالم الشهادة والغيب ! انه عاش فى كل زمان وفى كل مكان ٠ أى أحمد بن عبـد الوهـاب تريـد ان يخاطبك ، يا جاحظ ؟ الذى عاصرك أم الذى سبقـك أم الـذى عـاش بعـدك بقرون ؟ لم تعرف الا أحمد بن عبد الوهاب الذى عاش فى القـرن الثـالث فى العراق ٠ وماذا يهم الجمهور من أحمد بن عبد الوهاب هذا ؟ ومن شؤونه ؟ ومن خصومته ؟ ومن قضيته ؟ ومن مشكلته ؟ لم تعرف الا ذاك فقط ! فقط ! فقط ! اما الآخرون ، فانك لم تعرفهم ولن تعرفهم ! سجنت نفسك وسجنته فى زمان معين ومكان معين ، وادعيت انك وانه من نتاج دنيوى معين فجمـدت نفسـك وجمدته ، وقتلت نفسك وقتلته ٠ الا تدرى ان التاريخ يعدم ؟ وتلـك ، منـك أوهام ! لانك تؤمن بعقلك ، وهو ضيق ، بينما الحياة واسعـة ! الا تـدرى ان العقل يحد ويضيق وانك ترضى بالحد والضيق ؟ وزعمت ان التطابق تام بين عقلك والحياة ٠ الا ان عقلك أضيق ، والحياة أرحب ! وحسبت انك تلتمس ــ بذلك الحقيقة ، وتمسكها بكلتا يديك ، واذا بك فى جهـالة عقلـك الضيـق تتخبط أعمى ٠

حتى أنت يا جاحظ متعدد كثير !

لا ٠٠ لا ! دع التناسخ ! أرى فى عينيك هذا الاتهام ٠ أنت أذكى !٠٠٠

خل عنك المثاليات انت تعرف جيدا انى لا أحبها ، كخرافة الانسـان الذى يزعم انه يقدر على الافلات من تاريخه ٠ انت ــ مثلا ــ كنت تريد ان تتجـاوز طبقتك ، وتخرج منها ، وتسمو عليها ٠ أليس كذلك ؟ انت ابن بائع سمك ٠ وعمك خباز ٠ وخالك حطاب ٠ انت رجل من العامة ٠ انت رجـل من العامـة الجاهلة ، العامة الصامتة ٠ لم لم ترض بها ؟ فطرت ، انما طرت بجناح كسير ٠ بل حومت ، واضطربت ، وخفقت ، ما طرت ٠ كم من مرة سقطت فى حياتك ؟ بالاحرى كم من مرة طرت ؟ كم ؟ تكلم ؟! عاش من عرف قدره يا جاحظ ! امـا أنا ــ والحمد لله ــ متمسك بطبقتى طبقة الاعيان المتواضعين ٠ ألم أقـل لكـم ــ أيها السادة ــ انى أحب التواضع والمتـواضعين ؟ أتشـرف بأن أكـون من المتواضعين الصغار ٠ أتشرف بان اكون من الاعيان الصغار ٠ افتخر بأن أكون عينا صغيرا ٠ جدى كان اماما ٠ انا رئيس ديوان الانشاء والعلامة ٠ ابنى كبير المحاسبين ٠ تلك هى طبقة الاعيان الصغـار ٠ لكنهـا هى طبقـة الظرفـاء ، والكتبـة ، وأعـوان بيت المـال ، والمحـاسبين ، والمهنـدسين ، والمنجمين ، والاطباء ، والتنفيذ السريع ٠ وطبيعى ، ان الطاعة لسيدنـا ومولانـا الخليفـة ، والامانة لسلطانه ونظامه والتنفيذ لامره وحكمه ٠ اتشرف عظيم الشرف بـأن أكون أحد الاعيان الصغار الذين يحبون كل ظريـف ، ولطيـف ، وطريـف ، وخفيف ، وعفيف ، ونظيف ، وشريف ٠ لسان حالهم والحق يقال : التجديد ! التجديد ! التجديد ! لسان ضميرهم : المحافظة ! المحافظة ! المحافظة ! سلوكهم: الانضباط ! الانضباط ! الانضباط ! عملهم : الدقة ! الدقة ! الدقة !

لكن واأسفاه على طبقتى : يقظتها مشاريع جسام ، ونومهـا تحقيـق احـلام مزعجة ، وخيالها فراغ مدو مهول !

* * *

أحمد بن عبد الوهاب (يشرح أمره وشانه)

الدخول : الثامنة صباحا ٠ الخروج : عند الظهر ٠ العودة : الثـالثة بعـد الظهر ٠ الرواح : ربما بعد السادسة لانهاء الساعات الـزائدة ٠ ستـة أيـام عمل ٠ ويوم واحد استراحة فى الاسبوع ٠ أحد عشر شهرا عملا ٠ وشهـر واحد عطلة فى السنة ٠

المرتب ثلاثمائة دينار . وسأبلغ منتهى سلم الترقية بعد خمس سنوات . يكون مرتبي عند ذاك ثلاثمائة وتسعين دينارا . المنح المضافة الى المرتب : منحة الرئاسة خمسون دينارا وافية . منحة التكليف ثلاثون دينارا ناقصة بعض النقص . منحة التنقل الخاصة خمسة وعشرون دينارا . منحة السكنى مائة وسبعة دنانير . منحة التنقل الخاصة خمسة وعشرون دينارا . منحة الزوجة المحترمة والابناء الموقرين خمسة عشر دينارا تقريبا . منحة غلاء المعيشة ثلاثة وعشرون دينارا . المجموع : خمسمائة وخمسون دينارا .

لكــن ،

اطرح منها الضريبة على المرتب : عشرة دنانير .

اطرح تصحيحات الضريبة الشخصية : سبعة دنانير .

اطرح معلوم الضمان الاجتماعي عشرين دينارا تقريبا . اطرح الخصم لفائدة العجز والعميان وابناء السبيل دينارا واحدا . الباقي من المرتب ٥٠٠ آه نسيت ! اطرح معلوم التقاعد : ثلاثة وعشرين دينارا . الباقي من المرتب ، خمسمائة واربعة وعشرين دينارا تقريبا .

لكــن ،

اطرح منها أجر الخادمة ثلاثين دينارا ، أجر الطباخة خمسة وعشرين دينارا ، أجر عساس البيت خمسة دنانير ، أجر الممرضة أحد وعشرين دينارا . الباقي من المرتب : أربعمائة وثلاثة وخمسون دينارا .

لكــن ،

اطرح منها مائة وخمسة وسبعين بالضبط لا زيادة ولا نقصان نعم مائة وخمسة وسبعين دينارا لنفقات الاكل والشرب البطاطا الطماطم الفلفل الكسبر اللحم البقرى العصبان الجغالي الكركم البقلاوة القهوة فلفل الزينة الحمص. اطرح عشرين دينارا لحلاقة الزوجة المحترمة . اطرح خمسة واربعين دينارا لخياطة الزوجة المصون . اطرح عشرين دينارا لبائع احذية الزوجة الانيقة الرشيقة . اطرح خمسة وستين دينارا ثمن العطورات ، والدبغات ، والتحريقيصات ، والدخلات ، والخرجات ، والزيارات للسيدة الزوجة الحاذقة المقتصدة . الباقي من المرتب : مائة وثمانية وعشرون دينارا .

لكـن ،

اطرح منها ثلاثة وعشرين دينارا لمصروف الابناء • اطرح اربعة واربعين دينارا لملابس الابناء • اطرح سبعة وثلاثين دينارا ثمن الادوية لمعالجة امراض السيدة الوالدة • أنا بر بوالدتي ! لكن هذا المصروف ليس فى محله • الله غالب ! الباقى من المرتب : أربعة وعشرون دينارا فقط ولله الحمد !

لكـن ،

اطرح منها عشرين دينارا لاجر الجنان • ماذا يبقى ؟ أربعة دنانير ! أنا أحمد بن عبد الوهاب رئيس ديوان الانشاء والعلامة ليس لى فى بيتى الا اربعة دنانير ! هذه فضيحة ! وهذه الفواتير ، من يسددها ؟ فاتورة السيارة التى اشتريتها لابنتى حتى تستريح من شقاء الحافلات والتاكسيات للذهاب الى الجامعة • فاتورة الثريا التى علقتها فى سقف القاعة الكبرى الشهر الماضى • فاتورة الكحول والشراب والخمر • أنا شخصية وادعو الشخصيات الى البيت لتناول كأس • تسديد الدين القديم بعد كراء المنزل الصيفى امام الشاطىء • ثم يجب ان ادفع ثمن تجهيزات المسكن الثانى الذى بنيته خارج العاصمة للراحة والاستجمام تجهيزات تقدر بستمائة وثمانين دينارا بالضبط • مصاريف زهيدة ، لكن يجب دفعها ! أخيرا ، انى أحب الصيد ، أعشق الصيد ، أفنى فى الصيد • اذن يجب ان ارفع قارب الصيد ، ان ادهنه ، ان أزينه ، ان اشترى صنارات جديدة ، وقصبات جديدة ، وشباكا جديدة • تلك هوايتى الوحيدة • وهى هواية رياضية • وانا اكبر صياد فى هذا العالم • لزاما ان ارضى هوايتى • لكن ، كيف أجد المال ؟ وكيف أقضى اوقات الفراغ والراحة والعطلة السنوية ؟ اذا لا أجد المال ؟ مسألة حياة أو موت ! ثم يقال لى : مرتبك يا احمد ابن عبد الوهاب اكثر من خمسمائة دينار • لكن ما قيمتها ؟ لا شىء ! والله انى فقير ، مسكين ، لا أعرف عند انتهاء كل شهر كيف أنفق على أسرتى الضعيفة ••• لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم •

* * *

احمد بن عبد الوهاب (يصف وظيفته)

مكتبى واسع كبير ، فخم ضخم ، أنيق رشيق • لكـن ، لا زينة فيه ولا زخرف • اذ البساطة هى الاناقة ، والاناقة هى الرشاقة • ذلك ان الرشاقة هى التلاؤم بين اللون واللون ، والانسجام بين الحجم والحجم ، والتوفيق بين الصفة والصفة • لذا ، لا يوجد فى المكتب شىء دون وظيفة •

لى مصباحان ، لا .. لا .. خارج المكتب ! المصباح الاول اخضر . والمصباح الثانى احمر . حاجبان واقفان دائما تحت المصباحين . اذا اشعلت المصباح الاول ذلك يعنى : انى اقبل الزائر . اما اذا اشعلت المصباح الاحمر ، فذلك يعنى : نى مشغول بشؤون ديوان الانشاء والعلامة ، او انى فى اجتماع ، او انى لا أحب ان استقبل الزائر .

أحب النظام والدقة والانضباط . لا يكفى ان اعيد هذه الجملة مرات ومرات على الرائحين والغادين ، بل جعلتها شعارا ،وامرت الخطاط بكتابتها ، وتعليقها فى صدر المكتب حتى يشاهدها كل زائر .

نعم النظام ، نعم النظام الذى يقتضى احترام المراتب فى سلم الوظيف . لى اعضاد ثلاثة مخلصون ، مطيعون . أقول للاول : أكتب « الحمد لله » على رأس كل رسالة . ثم اكتب بعد ذلك : باسم الله الرحمان الرحيم ، بخط كوفى أصيل ، وبالحبر الصينى الاسود اللامع ، وعلى الرقاع الخفيفة السميكة ذات السدى الحريرى . فيطيع المسكين ما آمره به . يطيع ، ولا يجادل ، ولا يناقش ! المسكين ! ذلك هو شغله طوال النهار . وديوان الانشاء والعلامة يوجه بأمر من سيدنا ومولانا الخليفة فى كل يوم زهاء عشر رسائل الى مشارق الارض ومغاربها ، الى عظيم الروم ، وامبراطور الحبشة ، وفغفور الصين ، ومهرجا الهند ، وامراء الدول الاسلامية كالاغالبة ، والادالسة ، والاندلسيين وغيرهم . وكذلك الى ولاته بالكوفة والبصرة والرى وسواها من الامصار .

ثم ادعو العضد الثانى وآمره بأن يعد ختم الرسالة . واذكره بأن يكون الخاتم من الشمع الجيد الرفيع وبأن ينتبه الى ان ينقش على وجهه الاول « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وعلى وجهه الثانى كنية سيدنا ومولانا الخليفة واسمه ولقبه ونسبه المجيد التليد ، وبأن يكون الخاتم ذا لون أسود ، وهو لون راية الدولة العباسية أيدها الله .

بقى جوهر الموضوع ، وهو أم الرسالة ! على ـ آذن ـ ان احتجب جهد طاقتى ، والا استقبل أيا من كان ! حتى اختلى بنفسى لاحرر جميع الرسائل التى بين يدى . وهو جهد مضن قاس ، وشغل شاق ، وعمل مرهق جدا .

وانى لأتحمل هذه المسؤولية الجسيمة على كاهلى عن طيب خاطر ، خدمة للدولة العباسية المجيدة وولاء لها وتفانيا فى الذود عنها من كل هبة ودبة اذ فى سلامتها سلامتى ، وفى مناعتها مناعتى . اذن ، ابدا .. اعلمكم بأن نص الرسالة مقسم الى عناصر معلومة . فبعد الحمدلة والبسملة ، ابدأ الديباجة .

والديباجة تنقسم الى قسمين : قسم الدعاء وهو الاستهلال ، وقسم المخاطبة · ثم فحوى الرسالة · وأخيرا الختام وكله الدعاء · وفي اليوم الموالى ، أقدم الرسالة الى سيدنا ومولانا الخليفة لتوقيعها بحروف اسمه الجليل ·

واني لاستعمل الجمل الموجزة ، والمعاني المفهومة ، والالفاظ القريبة لدى الخاص والعام ، وعند الجاهل والعالم ، حتى ليكاد الاديب واللغوى والنحوى يمجها لكثرة استعمالها وانتشارها وذيوعها وذلك حتى أتجنب تحذلق الادباء ، وغش البلغاء ، وغرابة أهل الرجز والشعراء ·

والعضد الثالث مكلف بايصال الرسالة الموقعة المختومة الى صاحب البريد ·

هل يوجد ما أرهق من هذا الشغل ، ومن هذه المسؤولية العظيمة؟ يا جاحظ؟

* * *

أحمد بن عبد الوهاب (يهجو الجاحظ ويفاخره)

ثم تأتي ـ يا جاحظ ـ لتفاخرنى ، وتهجونى ، وتشتمنى ، واعباء الدولة على كتفى ؟ الا تعلم ان كتابتي حجة تبقى ، ووثيقة تقيد ، وتاريخ تدرسه الاجيال بعد الاجيال ؟ واعلم ان ادبك واسلوبك ومعارفك وبلاغتك وعقلك وعلمك انما تذهب ـ جميعا ـ ادراج الرياح ··· لان الكتابة لا تكون الا بالسلطان ، والسلطان لا يكون الا بالكتابة · امران متداخلان ، متطابقان ، متحدان · والكتابة التى لا تعتمد السلطان هراء ، ونفاق ، وزندقة ، وكفر ، والحاد · والسلطان الذى لا يعتمد الكتابة ضياع ، وهلاك ، وفساد ، وظلم ، وفناء · ذلك ان الكتابة ربوبية ، والسلطان ربوبى · فكيف ينفصلان ولا يتصلان ؟ وكيف يتعاديان ولا يتحدان لخير هذه الامة ؟ يا جاحظ انت زنديق !

* * *

أحمد ن عبد الوهاب (يشرح الخصومة بينه وبين الجاحظ)

معذرة ـ أيها السادة ـ انى لم احدثكم عن النزاع الذى قام بينى وبين هذا الجاحظ · كنت احسب انكم تعلمون جميع التفاصيل والجزئيات · على ـ اذن ـ ان احدثكم ··· هذا الجاحظ الوصولى الخبيث ذهب الى صديقه الوزير احمد بن عبد الملك الزيات ، وطلب اليه ان يتولى رئاسة ديوان الانشاء والعلامة · وبما ان الوزير لبى طلبه توهم انه يقدر على افتكاك منصبى · لكن لا يعرف الجاحظ انى اخبث منه واقدر على فضح دسائسه ومؤامرته الدنيئة · فوجهت فورا

زوجتي الى أخيها حاجب سيدنا ومولانا الخليفة • فحدثته بدسيسة الجاحظ الخبيث • فدخل الحاجب فورا على سيدنا ومولانا الخليفة وحدثه بدوره عن دسيسة الجاحظ الخبيث فما كان من سيدنا ومولانا الخليفة الا ان دعا الوزير على الفور ووبخه أشد التوبيخ وحذره من مغبة العودة الى مثل هذه الدسائس • وأخذ الوزير ينظر الى شزرا وأخذت أنظر اليه شزرا •

اصدر هذا الدساس كتابه التربيع والتدوير !••• مزقه الله اربا اربا ! يا جاحظ انت منافق دساس !

* * *

أحمد بن عبد الوهاب (يصف نفسه وطبقته عبر الزمان والمكان)

قال القدامى رحمهم الله رحمة واسعة : الرجوع الى الاصل فضيلة • فارجع — يرحمك الله — الى اصلك وفصلك ، والزم قدرك ومنزلتك وطبقتك • ولا تحلق تحليق النسور ، فانك غراب • ولا تثب وثب الغزلان ، فانك ضفدع • ولا تزأر زئير الاسود فانك قط • ولا تتبرج تبرج الطاووس فانك قرد ! واعرف نفسك بنفسك ! وعاش من عرف قدره !

أرى نفسى كما يرى النائم فى عشية يوم قائظ انى نقشت على ألواح الطين المصهود كلمات الالاه مردوك • ثم أجد نفسى أكتب على عظام الجمل رسائل الغساسنة الى ملوك العرب واقيالها فى اليمن السعيد • والآن انظر الى نفسى واذا بى أخط الخط المغربى على سجلات الدولة المرابطية فى مراكش الحمراء • والتفت ، فاشهد نفسى جالسا فى صحن جامع القيروان ، فانا اكتب رسائل ابراهيم الثانى الاغلبى • ومن وراء السهول الشاسعة المنبسطة حتى الافق تقوم سمرقند حيث كتبت بريد الغزوات والحرب لتيمورلنك • وفى عهد رمسيس الاكبر نقشت على الذهب الابريز والعاج العزيز والساج النادر تواريخ الفراعنة • وارتقى فى الزمان فها انا ذا فى فجر حضارة النهرين أحفر فى المرمر تشريع حمورابى الملك القانونى • وانزل ، فأرى نفسى فى سراديب قصور المماليك ، اكتب على ضوء شميعة ذاوية تقارير القتل والاغتيال التى تطير بها الحمائم البيضاء بين القاهرة ودمشق • وأسافر غربا ، واذا بى فى قرية ضائعة قد عضها الجذام وأكلها الوباء ، اكتب فى كراريس رقيقة تاريخ حضارة المايا قبل انطفاء شميعتها • واصعد شمالا ، فأرى نفسى معينا رئيسا للرقاب البيضاء الامريكية • وارحل شرقا ، فأخذ فرشاة لاكتب صورا كالحروف وحروفا كالصور على الورق فى عهد الامبراطور مينغ شونغ هوا • وها انى فى

احد البلدان الزنجية المتخلفة أتولى ادارة الطماطم والقهوة ، ومنصبي هو منصب رئيس مدير عام • لي سيارة فخمة ، وبيت فخم ، وزوجة فخمة • ولله الحمد •

* * *

احمد عبد الوهاب (ينصح الجاحظ)

حان الوقت •••

نعم ، حان الوقت لكي انسحب حتى امكنكم من التشاور فيما ترونه عادلا منصفا حقا أيها السادة الجلة القضاة • فبين يديكم وثيقة الادانة ، وامام كاتبكم تسجيل أمين لمرافعتي • والحكم الاخير ــ بطبيعة الحال ــ يصدره سيدنا ومولانا الخليفة رئيس مجلس المظالم • وانا الممتثل ، وانا المطيع ، وانا الخاضع • لكن ، هل تسمحوا لي ــ ايها السادة الجلة القضاة ــ ان أضيف كلمة •• كلمة موجزة واحدة ، لا أكثر ولا أقل أخاطب بها الجاحظ ؟! في استطاعتي ان اطرح عليك ألف سؤال أفضح بها جهلك • على انى لن اطرحها عليك ، لاني اعرف ــ مسبقا ــ انك عاجز ، انك جامد مجمد ، انك وجود مبتور ، وكيان معدوم ، وكون فساد •

لكم تغنيت ــ مثلك ــ طوال العهود والعهود ــ بالانسان التواق الى التمام والكمال • لشد ما ترنمت ــ مثلك أيضا ــ عبر القرون التي تغرق في القرون بقيم الانسان الى الخير ، والعدل ، والحرية ، والكرامة • لطالما كنت ــ مثلك كذلك ــ بأن للانسان معنى ، بأن للانسان قيمة ، بأن الانسان فوق الحيوان ، فوق كل شيء •••

كان حلمنا كالفجر نورانيا طيبا لذيذا • واليوم ، يا جاحظ ؟ كانت القيم تغرينا ، بلى تغوينا ، فننصاع مذعنين ، تهزنا حماسة السبق ، وتسلق أعالي الجبال ، والبذر ، والزرع ، والقطف • فالتهمناها التهاما ذريعا • كنا نسورا • واليوم يا جاحظ ؟ حشرات عمياء في ليلة حالكة الظلام • الا ان عصركم هذا عصر الضيق : أكلكم ضيق ، شرابكم ضيق ، نكاحكم ضيق ، زيكم ضيق ، مسكنكم ضيق ، مرتبكم ضيق ، تفكيركم ضيق ، مطمحكم ضيق ، أفقكم ضيق ، عدلكم ضيق ، حكمكم ضيق ، عالمكم ضيق ، مصيركم ضيق ، موتكم ضيق ، قبركم أضيق ••• الضيق ، الضيق ! افتحوا الابواب والنوافذ !•••

سيقتلني الضيق ! افتحوا الارض والسماء !··· سيقتلكم الضيق ! افتحوا الكون ، هو شيء ، نعم هو شيء تافه بين جميع الاشياء ؟

علي ان انسحب أيها السادة القضاة · انى ذاهب الى المسجد الجامع لاستخير الله ··· فحسبى الله ونعم الوكيل ·

* * *

احمد بن عبد الوهاب (يصلى)

ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا ·

يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ·

ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ·

واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ·

فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله ان اردنا الا احسانا وتوفيقا ·

أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا ·

وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ·

* * *

احمد بن عبد الوهاب (؟)

كان فى مستطاعى ان ألقى عليك ألف سؤال لانهم خزنونى بألف ألف سؤال فى كل علم وفى كل فن ، وخزنونى بألف ألف جواب فى كل علم وفى كل فن · أنت انسان ضعيف · أنت انسان صغير · أنت انسان حقير · أنت انسان جهول · انسان أنت انسان انسان · أنت جهول · أنت أنت أنت أنت أنت أنت ·

ع·م

إلى تونس الخضراء

شعر : عبد العزيز العندليب
(الكويت)

الى تونس الخضراء يا أيها الركب ... يملؤنا شوق ويغمرنا حب
الى حيث نلقى الرحل بين أحبة ... وأهل وداد قد هفا لهم القلب
الى موطن الاحلام تزهو على المدى ... ففى تونس الخضراء ميدانها الرحب
نرى جلوات الحسن فى كل ما نرى ... وما الحسن الا مستهام بها صب
تعشقها طفلا وشب بحبها ... وليس له الا الى أرضها درب
فيا أهلها .. إنا أتينا دياركم ... ولقياكمو ـ والله ـ غاية ما نصبو
نحييكمو باسم الكويت وأهلها ... ونحن جميعا إخوة أيها العرب
لقد وحد الاسلام والضاد بيننا ... فمغربنا شرق ومشرقكم غرب

ع. ع.
25 / 2 / 77 م

بين أحضان أبي الهول

قصة : حياة بن الشيخ

9 جوان

لم أكن أدرى أن السماء سترتج وتتفرقع فجأة ملقية بشظاياها فوق رأسى المعذبة (!) ، والارض ستترنح وتنشق تحت قدمى محاولة أن تبتلع أثر خطاى المتعبة على الثرى المنمق بالاحجار والاشواك .

فجأة فقدت نفسى .. فقدت وجودى .. فقدت ايمانى وربى .. وفقدتك والحياة .. أتعثر فى متاهات الظلم والتعسف .. أغوص الى الاعماق فى دياجير التعنت والفشل المرير .

فجأة فقدت نفسى .. فقدت وجودى .. فقدت ايمانى وربى .. وفقدتك أنت أنت يا من فى عينيه نقشت معالم نفسى .. وفى صدره أودعت مصيرى ، حاضرى وغدى وأمسى .. ولم أزل أسأل كيف كانت النهاية ولم أصل بعد الى البداية ؟

15 جويلية

هل جربت عذاب الصمت ؟ هل شعرت يوما بمدية حادة تنغرز بين أضلعك ، تحفر .. وتحفر لتستقر أخيرا فى قلبك .. تظل هناك تفرم لحمك قطعة قطعة وأنت ترمق ذاهلا قطرات الدم القانية المنسبكة منك مع قطع اللحم المفروم دون أن ترفع يدا أو تفعل شيئا . طبعا لا .. لا إخالك يوما أحسست بالالم ، ولا

ذاق فمك مرارة الحزن والندم • فالحزن طعام المحرومين • والدمع شراب الضائعين •• التائهين فى أغوار العناء •• المنبوذين من السماء •

لكن للعذاب لذة •• وللمعاناة متعة •• متعة لا يشعر بها من يعيش فى قمقم غروره متصديا لخطر الزمن •• جاهلا معنى الشقاء •

هل عشقت يوما وانت حائر بين الموت والحياة •• لا تعرف من تكون ولا ماذا ستكون وقد لفظك الموت • لعبت لعبته كم مرة غير أن الفشل كان رصيدك المتراكم على مر السنين •• وكما لفظك الموت تجاهلتك الحياة وغفلت عنك أعين الله الرحيمة •• لو حاولت أن تفهم ذلك يا حبيبى لكنت •• ولا ••

20 أوت

شهر آخر يمر • آلام أخرى اتحملها •• وسموم أخرى لا بد أن أتجرعها وأتلذذ بطعم مرارتها •• الساعات طويلة ، مملة ، تسير متكاسلة كحمار هرم ينوء تحت عبء حمله الثقيل • المآذن تتبارى فى سمفونية عجيبة الاوزان ، طريفة الالحان فلم تعد تميز أى صوت انما حشرجات متقطعة كشخير شاة تذبح •

رمضان يسدل أستاره على الكون • تفوح رائحته فى كل المنازل • صوت المقرىء الشيخ يموء عبر الاثير كقط عجوز يحتضر « قال من يحيى العظام وهى رميم » تطن فى أذنى تحاصر سمعى بعناد ذبابة نهمة تحوم حول أكل حامض •

تعود ملايين الابر تنغرز فى رأسى • والاسئلة البلهاء تعذبنى : أنا •• ما أنا •• من أكون ؟ حفنة عظام مهشمة لا روح فيها ولا حياة • هيكل متحرك أذواه السقم ، ونخره الالم • تآكلت كل قطعة فيه ولا أمل فى أن يحيا يوما • هل من أمل فى بعث الحياة فى هذا الرميم الذى أحمله على عاتقى ؟ كيف يا رب بعد ان فتك بى الطاعون •• بعد ان دمرتنى السنون •• كيف أبعث الى الحياة وقد جف من عروقى اكسير الحياة •

25 سبتمبر

اليوم عيد • عجبا كم للناس من عيد !! كقطيع غنم متعثر الخطى ، مئات الاطفال يتسكعون فى الشوارع • قوس قزح يخرق بسط السماء •• بحر ثائر الموج يلفظ اصدافه ، يرمى بها فوق رمال الشاطىء المتسخة •

الوحش الجريح يتخبط فى صدرى •• يمزق شباك قلبى •• يحاول الانعتاق •• يهد كيانى عويله الاخرس المفجع •• أرى طفلى الذى يتخبط فى

أحشائي من الازل والذى لن يرى النور أبدا أراه يتمـزق أمامـي ٠٠ نشيجـه يخرق أضلعي ٠٠ صراخه يدمي مشاعري : « لم يا أماه أهذا نصيبنا من الحياة ٠٠ متى تراه يكون عيدنا ٠٠ متى ؟

يشتد العويل ٠٠ ينفطر قلبي أسى ٠ يفرقع حولي دوى الاشجان ٠ لا عيد لي وأنت بعيد ٠ لا شمس فى سمائي ٠٠ لا قمر ولا فجر فى حياتي وأنت بعيد ٠ لا وجود وأنت صامت ٠٠ غامض ٠٠ رهيب كأبي الهول ٠ متـى تـراك تتكلـم لتشرق شمس العيد فى أفقي المعتم وتنطلق بسمة طفلي الحبيس في أحشائي من الازل ؟

بوجوه مشوهة أراهم ٠ بتفاهة ساذجة يبتسمون ٠٠ كقطيع من الخرفـان المختلفة الالوان يتزاحمون ٠٠ وأنا بجوعي وشراهتي أرنو اليهم كذئب يستعد للخطف ٠٠ شاهرا أنيابه ليمزق ٠٠ ويمزق ويغرق في يم من الدماء ٠٠ عسى الدماء تروى عطشي ٠٠ طفلي المتخبط في احشائي من الازل ٠٠ علها تروى ظمأ الوحش الجريح المولول في صدري والذى سيظل يدمرني الى الابد ٠

30 أكتـوبر

لماذا لا يتركون الكلاب تهيم فى الطرقات بكل حرية ٠ هل يستطيعون قتل كل الكلاب الضالة ٠٠ فالعالم مملوء بالكلاب الآدمية الضالة فى سراديب الزمن ٠ لو فكروا يوما فى رميها بالرصاص لما وجدوا رصاصا كافيا ولا وجدوا جبا يسع جثثها النتنة ٠

أراها ترتعش في ركن قصي من الحديقة ، تختفي تحت شجـرة متساقطـة الاوراق ٠٠ شريدة طريدة مثلي ٠٠ تشم رائحـة الخطـر ٠٠ دوى الرصـاص يشعرها بان الموت قريب منها ، فتندس فى التراب أكثر واكثر تخفي جسمهـا المرتعش ، رغبة جنونية تتملكني لو أرمـي بهـا الـى الشـارع المظلم ليمزقهـا الرصاص ، كما يمزق وجودى تعنتك الساخر ، غير انى لا أتحـرك ٠٠ أتجمد أنا وذلي وشراستي ٠ تختنق أفاعي الشر والحقد المزدحمة بنفسي أمام طيفـك المعذب المتراقص بين أعيني ٠ أتقهقر بعجزي الى الوراء ٠ شريدة لا ملجأ لهـا ولا مأوى ٠ وأنا مثلها ضالة أبحث عن مأوى بين ذراعيك فلا ألقاه ٠٠ أحن الى مرفئي الضائع بين احضانك ولا أجده ٠

يعمى عينيها التراب ، تجرى لاهثة ترتمي تحت قدمي ٠ اضع رأسي فـوق جسدها المحموم وأبكي ٠٠ أبكي حقدي وقهري وحبي الموبوء لك ٠

10 نوفمبر

شهر آخر يمر • لا بد أن أسير فى طريقه رغما عنى • وحيدة ، بائسة بلا أمل أن أرسو يوما على ساحل مرفأ ما •

يوم آخر أحياه • أمضغ عذابه • يعميني سرابه • أزيز الرعد يزداد فى كل لحظة •• يختلط بعويل الوحش المزمجر بصدرى ، أريد أن أصرخ •• أرفض هزيمتى •• أرفض فشلى •• أرفض ضعفى وظلمك لى •• أناديك •• غير أن الصدى يموت فى حلقى كما تموت معالم الوجود حولى • أخرج الى الطريق المقفر •• أجلس على الرصيف المحفوف بالسأم والضجر ، أعرض وجهى لوخزات المطر •• والليل والشوق والاحزان معى •• امطرى •• امطرى •• امطرى دما •• امطرى حمما •• فليغرق الطوفان جسم الكون •• ربما تمحى مياهه سواد قدرى •• ربما تغسل أحقاد ضجرى •• علها تطهر جسدى من سموم لهفته اليك ••

أريد أن أجرى •• أذهب اليك •• غير انى اهوى على الرصيف أتمرغ فى مستنقع البؤس والملل •• دون ان اصل اليك •

20 ديسمبر

الأفيون ، لم يبق أمامى الا الأفيون أشل به فكرى وأنا أحاول أن أمتطى جواد النسيان لاهيم فى بيداء الهوس • غير ان الجواد كان هزيلا • ترنح عند أول خطوة وهوى بى على الثرى المغروس بالشوك والصبار فينزلع جلدى ليصبح كتلك الجثث المسلوخة النازفة فى مذبح الوجود الكبير • جثث مبتورة تتصارع مع اكفانها تسمم الارض بدمها المريض وتخنق الهواء برائحتها العفنة•

هائمة فى الشارع المزدحم بالضائعين ، الباحثين مثلى عن أفيون • قدماى تغوصان فى غبار الطريق رأسى تنطح السحاب • تختطف شفتاى حفنة ضباب • أبقى أعلكها بتلذذ • أختزن فى فمى نكهة صقيعها لاجتر بقاياها فى ليالى الانتظار المسعورة • ثم لا بد أن أعود •• دوما لا بد أن أعود الى وكر آلامى حيث تتصارع فوق الفراش أبالسة الاشجان • وتحت الوسادة تتناحر عذارى الحرمان •

الأفيون يفتت شرايينى •• الويسكى مر المذاق لا ينسينى ابتسامتك الغامضة كابتسامة ابى الهول وهو يتحدى خمسة آلاف سنة من الصمت والصمود • أرمى الكأس من يدى • تهوى على الارض لتتكسر الى ألف قطعة ،

أدوسها بقدمي الحافيتين ·· تغوص في جلدي ·· تشرح لحمي الملتهب ·· أرتمي بحنقي فوق الفراش · يعود ابو الهول الى غموضه وبسمته الخرساء تمزقني بصمتها الابدى ·· ولا أنسى ·· لا يمكن أبدا أن أنسى ·

1 جانفي

سنة جديدة أدخل غمارها وأذيالي ملطخة بوحل الاشهر الماضية · سنة جديدة اسبح في مستنقعها الراكد ولا حبل نجاة أرقبه ولا شعاع فرحة أتية ·

الايام نار تستعر ملتهمة بعناد أشلاء ليالي الممزقة ، وساعات عمرى الميتة · بين السنة لهيبها أجدني أنا · يمحقني جحيمها ، وتذروني رياح نحسها · أحترق·· وأحترق·· والجوع واليأس وذكراك معي وصرخة محبوسة تحاول الانفلات فيبتلعها الوحش المتمرد بصدرى · وأنت صامت يا أبا الهول ، تثير ضمير الكون بغموضك · وتستفز مهجة الايام بسحر نظراتك الباردة الخرساء· بقسوة ووحشية تبتسم · ابتسامة فيها نديب وفيها عويل وفيها مكر ونقمة وتحفز رهيب ومثير · أذوب في سحر وحشيتها · أتلاشى في ظل قساوتها · يفقد الكون معالمه في عتمة صمتها المتعالى الابدى ·

ماذا لو تكلم أبو الهول ؟ ماذا لو ذر رمال الصحراء عن جسمه ولاذ بالفرار من الشموس المحرقة التي تخنقه وتكبت احاسيسه · لو تكلم أبو الهول فسيذوب في ظل محياه الشامخ ضياع عمرى · ولوعة أيامى ··

14 فيفري

مطر هزيل يقطر من مقلة السماء الحائرة كعين بغي عجوز جف من محاجرها الدمع وتساوت أمامها الافراح والاتراح · حائرة لا تعرف هل تبكي أم تستكين الى دفء حزنها الملتاع · والضباب يزحف كما تزحف التجاعيد الى وجهها المكمش الذى بصقه باحثو اللذة يخط نقطا سوداء على بشرتها الداكنة · تنمو وتنمو لتغدو سحابة تنفجر دموعا لزجة على صفحة الكون · أبكي معها · الصقيع يلفني ·· أعاصير الموت تلذعني ·· الرصاص الذى يطارد الكلاب الضالة ينغرز في صدرى ·· يروح في صراع مميت مع الوحش الثائر في قلبي ·· لكنني لا أموت · لا يمكن أن أفنى وأنت بعيد ، رغبة جنونية تلهمني البقاء · تسمرني على بساط الحياة · أحبك وأريدك ورغبتي اليك أقوى من

الموت ٠٠ أشد من اليأس ٠٠ أقسى من الوجود ٠٠ وأعنف من بسمة أبى الهول الساخرة ٠

لعنة تطاردنى كقضاء مبرم لعين لا خلاص منه أبدا ٠ وأبو الهول يخشى أن يتكلم ٠ خمسة آلاف سنة ترمقه ٠ تلجم فمه ٠ تمتحن شموخه وجموده ٠ تتحداه ٠ يرتعد أمام جبروت سطوتها ٠ الخوف يكبله ٠ يخشى أن يهوى وآلاف الاساطير تطارده ، فيصفعها بصمته وصموده ٠ يصفعها بهدوء بارد مصطنع كريح الموت ان هبت ليلا ٠

9 مــارس

أخيرا نطق أبو الهول ٠ تزحزحت صخور الصمت وبدأت تتفتت تحت وقع ضربات معول عاشقة بائسة ٠ تقول كلاما كثيرا ٠ تحاول أن تكون متوحشا ، لكن ابتسامتك تمر على الصدى المتنمر فتداعبه كما يداعب النسيم زهرة عنى وشك التفتح ٠ نظراتك لا تستقر على شىء ٠ شرسة حينا ٠ ودود حينا آخر ٠ مستكينة مرة ومشاكسة أخرى ٠ ممزق أنت وضال مثلى ٠ مثات الافكار تأسر رأسك المتعبة ٠ تبعثرك بصمتك تدمرنى ٠ ببرودتك تمزقنى ٠ أظل أتمرغ على جمر ابتسامتك الغامضة ليالى وليالى وارتطم بجبل غرورك شهورا طويلة ٠٠ ثم لا بد ان نعود كقاطرتين انفصل بعضهما عن بعض فى سكة ما ٠ فى طريق ما ٠ ثم عادتا ليلتصق بعضهما ببعض وتواصلا السير فى مسيرة الغد المجهول ٠ عادت القاطرتان تصطدمان ٠ تجذبهما نفس السكة الملتوية ٠٠ نفس الطريق الشائكة، ويلهبهما نفس الصراع الصامت اللانهائى ٠

20 افريــل

وأنا أتجرع ثانية علقم انتظارى وزيف أملى ٠ أتسلق ظهر أحلامى المحدودب ٠ أهيم فى مذبح العالم الكبير الذى ترشح فيه الجثث الممزقة وهى تنز دما صدئا ٠ أرى دماءها على الطريق تخط كلمات معوجة متشابكة ، كأنها نقشت بيد ميت مبتور الاصابع ٠ أبو الهول وان تكلم ٠ فلن ينحنى أبدا لرياح الصحراء الثائرة ٠٠ أحاسيس مئات القرون تجمدت فيه ٠ خنقت صوته فلم يعد قادرا الا على تلك النظرة الغامضة يتحدى بها الدنى ٠

لكن لما ضممتني اليك رغم ان شفتيك كانتا مطبقتين ، تبحثان عن مكان ما في وجهي أتقبله ، كانت عيناك ترنوان الى بقوة غريبة • تكاد الكلمات تقفز منها عنوة كطير سجن طويلا يحاول الافلات • كانت كل قطعة فيك تتكلم • لكل منها لغة رقيقة •• قاسية •• عنيفة •• مدمرة ، تذوب رقة وحنانا مرة وتنسكب قسوة وشراسة أخرى •

كنت ألتهم شفتيك بنهم متسول جائع ألقى أمامه بقطعة « بفتيك » شهية فبقى مصعوقا يخشى أن يزدردها ولا يستطيع أن يقاوم لذة التهامها • أقبلك وخيال ابي الهول يتراقص أمام أعيني • فابتسم وابتسم • احس انى أكبح جماحه ، اصفع غموض ابتسامته الساخرة •• أتحدى خمسة آلاف سنة من الكبرياء والصمود ، والترفع والشموخ •• أفند مئات الاساطير الجاثمة حوله كسرب نحل يحوم حول عش عسل • أبو الهول بين ذراعى •• يضحك •• يتكلم •• يقول اشياء كثيرة متناقضة وشرسة • تؤلمني وتسعدني • فجأة سكت • عادت بسمته الشامخة تركل الوجود وعادت عيناه تمتلئان ضبابا وسأما مبعثرة عمرا طويلا من الصراع والضياع ، لتخلدا الى الصمت المترفع المغرور.

16 مـــاى

عبثا ابحث عن معنى للوجود • عبثا أحاول أن أفهم سر الطلاسم التى تعصب بها تصرفك الاحمق • عبثا احاول ان اكتم عويل الوحش المتمرد المزمجر بصدرى المتعب • عبثا أحاول الفرار من جحيم الحياة وآلام الانتظار العالقة بكيانى الموغلة فيه كسرطان فتاك يسرى فى شراييني ويسمم دمى دون رحمة• عبثا •• عبثا • حياتى كلها عبث فى عبث ومهزلة سخيفة يختلط خيط النهاية فيها بعقدة البداية ••

كل يجرى خلف شيء وخلف لا شيء • كل يسير يتدثر بعباءة الامل الخداع مطوق العنق بحبل الاحلام البراقة • والدرب طويل شاق أوله ألم وآخره حسرة وندم • وانا فى غمرة انهيارى لا أزال أبحث عنك • أبحث عن الطريق اليك • ابحث عن الحياة فى عينيك • أبحث عن مرفئى الضائع بين ذراعيك • غير ان الضباب يعود دوما ليغمرنى •• والاحزان تبعثرنى ، ترمينى بعيدا •• بعيدا عنك • أبقى اتزحلق فوق جبال الهموم •• أذوب •• أذوب •• أتلاشى ولا أمل فى الوصول اليك • ستقفز رمال الصحراء المحرقة • يكوينى

هجيرها . أبقى أتمرغ وسط اللهيب المستعر ، تمزقنى نظرات أبى الهول المتعالية .. تفتتنى ابتسامته الغامضة المتحدية ، وتأكلنى آلاف الاساطير المنتصرة المتناسلة على مر الاحقاب . الطيف الرهيب يزحف نحوى . يخنقنى .. تتشقق الارض الرملية الرخوة تحت ثقل جسدى . هوة سحيقة تفتح فاها لتبتلعنى كتمساح جائع فتح شدقيه منظرا الفريسة . أغوص .. أغوص . أبحث عن صوتى . لا أجده . الوحش فى صدرى يكف عن العويل ، يموت قهرا . يلفظ ابنى آخر انفاسه وسط أحشائى الممزقة . تسقى دماؤه رمال الصحراء الظمأى ، وأنا أترنح فى ظلمة قبرى ، كفنى الملتهب يكتنفنى أتلاشى .. أتلاشى .. أصرخ باسمك فى سرى .

أبو الهول ما زال يرنو الى . عيناه تمزقان آخر بارقة أمل فى نفسى . تمتصان آخر نطفة للحياة فى تتركانى جثة مشوهة تنفر منها أعين الله . وتتحداها الاساطير والخرافات البلهاء .

دمائى النازفة تجتاح أقدام أبى الهول . تكتسح جسمه المتحفز الصامد على مدى العصور . رأسه البديع ينكس . تلطم الدماء وجهه الغامض المثير يغرق معى . يغرق . يتصدى للتيار الثائر . يتشبث بحبل صموده المقطوع .. يبتلعه الاعصار .. يغرق .. يغرق .. يغرق .. و ..

حياة بن الشيخ

في أصول القصّة العربيّة

بقلم : أحمد الطويل

يقف النقاد من اصول القصة العربية مواقف متعددة منهم من يقول ان القصة جاءتنا من الغرب وان الادب الفرنسى هو منبع للقصة العربية الحديثة وان القصاصين العرب قد تأثروا بالادب الاوروبى عامة والادب الفرنسى بصفة خاصة ، وابرز من ينظر هذه النظرة الى القصة العربية الروائى المصرى يحيى حقى فى كتابه « فجر القصة المصرية »

ومنهم من يقول ان القصة عربية اصلا ومفاصل ، وان لها اصولا عريقة وطيدة فى الادب العربى وان عروقها ممتدة فى تاريخ الآداب العربية ونذكر من هؤلاء الناقد يوسف الشارونى الذى يذهب شوطا بعيدا ويرجعها الى العهد الفرعونى والى نمط النادرة العربية (1) وفى مقال له بمجلة آفاق عربية (2) يرى ان العرب عرفوا القصة القصيرة فى مرحلة من مراحلها عبر تاريخها الطويل · وحصر الشارونى انواعا عديدة للقصة القصيرة فى قالب النادرة مثل نوادر جحا وابى نواس ، ونوادر كتب الحيوان ·

---

(1) انظر مقالة « النادرة العربية فى الادب المصرى » بمجلة الهلال ، العدد الخاص بالقصة ، مارس 1977

(2) انظر مقالة «النادرة العربية » بمجلة آفاق عربية السنة الثانية ، العدد 10 ، حزيران 1977

إلا اننا نرى أن القصة القصيرة العربية لئن وردت تقنياتها الحديثة من الغرب ، واقتبسها الادباء العرب من مطالعاتهم الغربية ، فان روح القصة قديم جدا عند العرب • وقد لقحت هذه التقنيات الجديدة الادب القصصي العربي فوجدت الارض الطيبة والتربة الخصبة التي ما لبثت ان اعطت عطاءها الثرى والمتنوع •

فما هي أصول القصة العربية التي كونت هذا الاستعداد الفطري لقبول هذه التقنيات الجديدة وتبنيها وتطويرها واثرائها ؟

انه لمن السهل ان نجد فنونا وانواعا من القصة في الادب العربي القديم ابتداء من قصص الايام الجاهلية ومرورا بروايات العشاق والمتيمين وهي روايات تقوم على اطار شعري ويكثر فيها الاستشهاد بالشعر وتتحلى بتحليل عميق لعواطف الحب ومشاعر الهيام والعشق والوجد بنوعيه العذري والاباحي وهي قصص واقعية حية لكن للخيال فيها قسطا كبيرا • الا ان الترجمة من لغات اجنبية كان لها مفعولها الكبير في القصة العربية • فابن المقفع ترجم كتاب بيدبا الفيلسوف ونقله عن الفهلوية ، وهي لغة فارس القديمة ، لكنه زاد عليه وصبغه بالروح العربية ونحن نعلم بدقة الفصول التي اضافها الى الاصل بقلمه ، والتحويرات التي ادخلها عليه ، والصبغة الاسلامية التي كساه بها مما جعل كليلة ودمنة كتابا عربيا اصيلا •

ولئن كان اصل رواية « الف ليلة وليلة » فارسيا وهنديا ، فان هذا الكتاب قد اكتسب روحه العربية وتحلى بخصائصه البديعه في بلدان مشرقية عربية وفي عواصم اسلامية كدمشق وبغداد والقاهرة وغيرها ••

الا أننا نجد اطارا فنيا قصصيا قد نشأ ناضجا مكتملا على يد بديع الزمان الهمذاني (ت 398 هـ) في أواخر القرن الرابع الهجري وكان له اثره البعيد على الادباء العرب من بعده في كامل ارجاء البلدان العربية الى اوائل عصرنا اذ نجد في تونس في القرن التاسع عشر واوئل هذا القرن كتابا عديدين تفننوا في المقامة كالورغي والغراب والدالي وبيرم التونسي وقد حاولوا جميعا طرق مواضيع واقعية تكشف كلها عن نظرات نقدية ازاء الواقع والمجتمع وان كان عيبها الغرق في المحسنات والشكليات اللغوية •

ولقد قامت القصة العربية الحالية على اطار المقامة التي كانت لها بمثابة الرحم الذي انبثقت عنه التجارب القصصية في مستهل هذا القرن واواخر

القرن الماضى ، ونذكر من الكتاب الذين استغلوا قالب المقامة وكان عملهم تطويرا له ومحاولة للتقرب من فن القصة الحديث وتقنياته العصرية ؛ كاتبين هما احمد فارس الشدياق ومحمد المويلحى ٠

ويعتبر الشدياق جبار القرن التاسع عشر واكبر موهبة قصصية لكنها اهدرت (3) ، وقد ترجم فى كتابه « الساق على الساق فيما هو الفارياق » لحياته باسلوب حى طريف ٠

اما محمد المويلحى فنرى فى أثره « حديث عيسى بن هشام » تعانق الفن العربى مع الفن الغربى الروائى وذلك لاول مرة فى تاريخ القصة العربية ٠ اذ يعتنى المويلحى قبل كل شىء بالسرد الفنى ورسم المجتمع المصرى بدقة ، وتصوير الشخصيات المصرية فى كثير من البراعة والحبكة الفنية الجمالية والنظرة النقدية الواعية ٠

وتعتبر سنة 1913 السنة المصيرية للقصة العربية اذ كانت سنة النهاية لادب المقامة بظهور كتاب : « زينب مناظر واخلاق ريفية ، بقلم مصرى فلاح » وبه ظهرت ثمرة من ثمار الثقافة الغربية البحتة اذ كان وليدا لقراءات روائية فرنسية ٠ (4)

وهكذا ستتطور الكتابة القصصية بعد رواية « زينب » لهيكل وتتقدم خطوات على أيدى مؤسسيها فى المشرق والمغرب نذكر من مصر محمد تيمور فى العشرينات (5) ومحمود طاهر لاشين (6) فى الثلاثينات ثم اخوه محمود

---

(3) انظر كتاب : « صقر لبنان » لمارون عبود ٠ منشورات دار المكشوف ٠ بيروت 1950
وكتاب « احمد فارس الشدياق » لمحمد عبد الغنى حسن من سلسلة أعلام العرب

(4) تأثر هيكل خاصة ببول بورجيه وهنرى بوردو ٠

(5) اقرأ مجموعة « ما تراه العيون » لمحمد تيمور ٠ القاهرة 1964 من منشورات المكتبة العربية ٠

(6) انظر مجموعة « يحكى أن ٠٠ وقصص أخرى » لمحمود طاهر لاشين ، الطبعة الثانية ٠ من سلسلة كتب ثقافية ٠ القاهرة ٠ د٠ ت٠

تيمور وقد ارسوا جميعا اسس القصة الحديثة واهتموا بتصوير اشخاص من المجتمع المصرى من الطبقة المتوسطة ٠

اما فى تونس فنجد على الدوعاجي (7) وعبد الرزاق كرباكة ومصطفى خريف وزين العابدين السنوسى وغيرهم ، ولئن كان انتاج هؤلاء يتسم بالقلة فانه يعتبر مساهمة فعاله فى كتابة قصة تعبر عن خوالج النفس ونوازع القلب وتصور أحداثا وتجارب وترتكز على الاساليب القصصية التقليدية من سرد وحوار وتشويق وامتاع وحبكة وتركيز وحل عقدة ٠٠٠

أ٠ ط

---

(7) مجموعته « سهرت منه الليالى نشر الدار التونسية للنشر ٠ 1969 ٠ تقديم عز الدين المدنى ٠ وليت نادى القصة يسهر على جمع قصص الرواد الآخرين ٠

تقرؤون فى الاعداد القادمة

حركة الخوارج فى المغرب وفى منطقة الخليج خلال العصر الاسلامى الاول (دراسة) ٠٠	بقلم : الحبيب الجنحانى
اشراقة انت والكون ظلام (شعر) ٠٠٠٠	الحبيب العوادى
السكوت علامة التفكير (شعر) ٠٠٠٠٠	محمد الشابى
الى من يظلم أبا حيان التوحيدى (دراسة)	عبد العزيز الهانى
الى طائر الوحدات (شعر) ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	عبد القادر بن شرودة
تقرير عاجل من زنزانة 19 (شعر) ٠٠٠٠	حلمى الزواتى

الحب الخالد

شعر ابراهيم عبد الباقي

يا حبيبى طلع البدر فهيا ننتشى بالحب كأسا إثر كأس
اسقنى ثم اسقنى واشرب حميا هى منك واليك خمر نفسى
واسكب الشوق رحيقا عبقريا حلما يغمر وجدانى وحسى
سكن الليل سكونا أزليا ليس فيه غير انفاسى وهمسى
وامتزجنا لا نعى فى الكون شيا ليتنا دون غد من غير أمس
وانتشينا نبعث الحب فتيا والهوى يسرى بحس وبلمس
عانقت أرواحنا حبا نقيا والهوى الخلاق فى طهر وقدس
قد عرفت الحب مذ كنت صبيا وفهمت العشق حتى شاب رأسى
فكلانا ينهب اللذات حيا وكلانا يومه فى مثل عرس
وكلانا يستقى عذبا زكيا وكلانا يومه جنة أنس
قد صفا الحب لنا عيشا رضيا هات ما عندك كأسا بعد كأس

إ٠ ع٠

ثرثرة أغسطس

قصة : محمد الباردي

الى الاستاذ محمد مزالي رجل فكر وتربية وصاحب هذه الدعوة : « فلنلائم برامج التعليم والثقافة اذن حتى تعم الروح العلمية كافة أصناف الشعب وتستأصل الشعوذة وتزول العقلية الخرافية وتتركز ارادة الحياة والبقاء في أجيالنا الصاعدة ٠٠ اذا أردنا أن نخرج من التخلف حقا ونساهم في بناء حضارة » الفكر عدد 5 فيفري 1973)

①

كنت متيقنا عندما استيقظت صباح هذا اليوم ووجدت نفسي على سرير أبيض وأمامي ممرضة بيضاء والى جانبي طاولة ليل فوقها قارورة ماء صافية أنني في مستشفى للامراض العصبية ٠ تحسست وجهي وبطني ورأسي وأطرافي ، فكل هذه الجهات المسؤولة تعلن عن سلامة أجهزتها ولكني رغم ذلك أشعر أنني مريض ٠

ـ I مكرر ـ

فعلا ان هذا الرجل الذي دخل مستشفى الامراض العصبية لا يبدو عليه شيء من علامات المرض ، لكنه جاء الى هنا بنفسه تحمله قدماه ، فقد أقر منذ أيام أنه مريض ولا بد من الاتصال بطبيب مختص ٠ وعندما جلس الى الطبيب أجاب :

ـ الاسم فلان بن فلان

ـ العمر ثلاثون سنة

ـ المهنة : أستاذ تعليم ثانوي

ـ الاقدمية : ثمانى سنوات

ـ الحالات العرضية : لا شيء لكنى مريض

لم يتعجب الطبيب بل ربت على كتفيه قائلا : حالتك عادية جدا ، تمر بنا مثلها فى السنة حالات عديدة ، ستقيم الليلة معنا ولا تخش أمرا خطيرا ٠ وهكذا استيقظ هذا الصباح وعندما أقبل الطبيب دعاه أن يتحدث وطلب له قهوة وقدم له سيڤارة مبسمة ٠

②

حاولت أن أنسى اللحظة التى أنا فيها لاعود بذاكرتى وألملم شيئا من ماضى القريب بالرغم من الالم الذى يصيب أعصابى ، وسرعان ما ضحكت رغم هذا الالم ورغم الطبيب الذى يجلس أمامى كأنه ينتظر لغزا ليكشف علتى ٠

ضحكت ، فقد تذكرت أننى رجل يحمل تحت ابطه كتبا ومحفظة وفى جيبه أقلاما ملونة ويدخل كل يوم قاعة ليخرج منها الى أخرى ٠

كانت هذه الادوات لعبتى المفضلة عندما كنت طفلا صغيرا أجرى حافى القدمين بين السواقى وعلى الزجاج المكسر فى دروب الغابة وكنت أجمع كواغظ وشظايا زجاج وعصيا ، من الكواغظ أصنع كتبا وكراسات ومن شظايا الزجاج والعصى أصنع أقلاما وتلاميذ ، وكنت أتكلم وأصرخ وأضرب بقدمى على الارض لان تلامذتى رغم ذلك لا يصغون الى ٠ كان أبى فلاحا ، ورغم ذلك كنت أريد أن أكون مثل خالى ، أحمل أدوات وكتبا وأقف أمام صبية لالقى درس الصباح أو المساء ٠ على اللعنة لو لم ألعب لعبة المدرس والتلاميذ ٠٠؟ كان على أن ألعب مع الحمار والعنزة التى كنت أحملها الى راعى المدينة فى موسم الصيف ليلقحها تيس صلب تتسرب منه رائحة الجنس والشهوة ٠ أو أن ألعب لعبة المشعوذ الذى يدخل أسرنا بدون حساب ليعلق حجابا ويسرقنا مالنا ٠ كان على ٠٠

سامحك الله يا والدى ، كنت تقول لى دائما :

ـ يا ولدى كن رجلا ، اقرأ ، تعلم ، فأنا لا أعرف من أمر الدنيا شيئا ٠

سامحك الله ، فقد كنت تعرف أشياء كثيرة ، وكنت رغم بساطتك أكثر عمقا ، كنت تريدنى موظفا حكوميا أو معلما يضع فى جيبه قلما ويحمل مجموعة

أوراق وكراسات حتى تفتخر أمام أصدقائك : ابن فلاح يصبح موظفا حكوميا · شئت أن أكون مدرسا ، سامحك الله ·

أدخل قاعة ، أفتح كتابا ، أتكلم ، ألهث ، أعرق أتحدث عن الحداد، عن المرأة ، عن الحداد والمرأة والمجتمع ·

ـ سيدى ، لقد كان الحداد كافرا ·

ـ لا يا ولدى ، الحداد كما كان جد جده مسلما ·

ـ سيدى ، أنا أقول أن الحداد كان كافرا · هكذا قال رجال فى المسجد

ـ يا ولدى ، الحداد كان رجلا عاقلا ، كان رجلا مناضلا · ظلمه فى عصره وغير عصره أرباب المساجد سامحهم الله ·

ـ سيدى أنا أقول ان كتابه من وضع الراهب سلام · هكذا قال لنا الاستاذ ق عندما اجتمع بنا فى المقهى وقال ان فى قريته شيخا ، رجل علم وتقوى شاهد على هذا والاستاذ ق أستاذ أدب مثلك ·

واضرب كفا على كف ، يا خسارتى ، بناء يضع جسرا حجرا حجرا وقطعة حديد فوق أخرى بعرق جبينه ثم تنزل صاعقة فتنسف كل شىء · وأخرج من القسم صفر اليدين، لماذا أنا والحداد سيظل كافرا وملحدا ودجالا ؟ سامحك الله يا أبى ، لو جعلتنى فلاحا أحمل المسحاة وأقلب الارض ويعفر وجهى التراب لكن الارض ستحس بنبضة قلبى وعضلاتى ··

③

لماذا أدخل قاعة الاساتذة ، ألاشرب كاس شاى أو قهوة محمصة أم لأقف وحدى أمام النافذة التى تطل على حديقة المعهد كلما دق جرس الساعة العاشرة أو الرابعة ، أسأل نفسى كلما دق الجرس وأقف على عتبة باب قاعة الاساتذة ·· هؤلاء الاساتذة ماذا يصنعون بالتحديد ، يلبس أغلبهم بدلا من طراز أقل من اللائق أو أحسن وبعضهم يلبس لحى كثة تختلف طولا وعرضا باختلاف دلالتها الفكرية ·

حقا ان هذه القاعة التى يصفها هذا الرجل فلان بن فـلان وهو فـى حجـرة للامراض العصبية صورة مصغرة للعالم الحديث • ففى ركن يجلس المتقاعدون « يتشفطون » كؤوس الشاى بطريقة عصرية وينظرون الى غيرهم من المدرسين كأنهم أساتذة من الصنف الثالث كالعالم الذى ينتمون اليه • وفـى الركن المقابل يجلس اصحاب اللحى ذوو الاصالة المفقودة • وفى الركن الثالث يجتمع النساء وأرباب الرياضة هذه هى قاعة الاساتذة كما عرفها هذا الرجـل الـذى يبدو أنه أصيب « بنزلة عصبية » لكنه أهمل الركن الرابع وهو ركن يجمـع بين تحريفى تقليدى وتحريفى حديث وماوى ويسارى متطرف • لكن اجتماعهم قلما يطول وفى أغلب الاحيان يظل الركن فارغا لانهم لا يتفقون • حقا ان هذا الرجل يذكر كل شىء عن قاعة الاساتذة ، ويذكر الحصار الموجود بين هـذه الاركان الاربعة ويذكر أنه كان يقف وحيدا خارج الحصار •

④

ما لهذا العالم يضيق ويحاصر ، كان على أن أجلس أمام مدير المعهد بكـل احترام ، لكن على قبل كل شىء أن أضحك بدورى من هذه الكلمـة ، فقـد تكرر معنى الاحترام كثيرا •

– سيدى لماذا تدرسنا أبا نواس ، هذا رجل كافر وفاسق وملحد ، هذه جناية علينا يا سيـدى •

– يا ولدى ، أبو نواس لم يكن كافرا فاهل عصره لم يكفروه فما بالك بنـا الآن •

– سيدى ، آن لنا تكفيره •

– طيب أحترم رأيك ، لكن قبل ذلك يجب أن نفهم هذا الشاعر •

ويسكت التلميذ لان رأيه محترم وان كان خاطئـا ويضحـك التلاميـذ لان أستاذهم جبان يبحث عن الطرق السهلة للخروج من المآزق •

قلت آن لى أن أجلس باحترام واسأل السيد المدير :

ــ سيدى المدير مع احترامى لتقييمك لست راضيا بهذا الصنف ، اننى صاحب أقدمية وتجربة وأنت تعلم مواظبتى وانتظامى ..

أجابنى السيد المدير باحترام ..

ــ أعلم أننا لا نعطى الاعداد من اجل المواظبة والانتظام .

ــ وماذا تريد اذن ؟

ــ أنشطة أخرى ..

ــ تقدمنا بمحاضرة عن الغزل ورفضتها

ــ لسنا فى حاجة الى غزل عمر أو الى خمرة أبى نواس ، ثم بلغنى أنك لا تكفر أبا نواس فى دروسك .

ــ 4 مكـــرر ــ

ان هذا الرجل الذى يتحدث تعلم شيئا هاما عندما كـان تلميـذا فمـا زال يذكر ليلة أرق عاشها عندما تحصل على عدد ردىء وصاح فيه أستاذه :

ــ ما هذا التعصب ، ما هذه الفوضى ، الا تعرف الموضوعية ، أتنتقل الى الجامعة وأنت قاصر عن التفكير العلمى !

وظلت العلمية والموضوعية مركبا بحريا يريد اللحاق به وعندما بلغ الجامعة علم أن أساتذه على حق ، فلا معرفة بدون علم ولا علم بدون موضوعية .

وعندما يخرج من الفصل وقد تصبب جبينه عرقا ويقف الى المشرب يطلب قهوة الساعة العاشرة يسأل نفسه ، هل البلد فى حاجة الى شهائد جامعية او الى أساتذة وعندما يصبح أستاذ الرياضيات يلقى درسا فى الادب :

ــ تدرسون الحداد ؟

ــ نعم يا سيدى .

ــ انه رجل تافه ، من ذوى الافكار المستوردة

ـ كيف ، سيدى ، أستاذ العربية قال انه ابن هذه التربة التونسية الطيبة ، انه رجل فكر قدم للوطن عملا اجتماعيا جليلا ٠

ـ أستاذكم جاهل ٠

عندها يتساءل أيضا لماذا لا نأتى بجلاس المقاهى وأرباب المساجد ليقفوا أمام التلاميذ فى دروس الصباح والمساء ٠

أما آن لهذا الرجل الذى توترت أعصابه أن يسكت ولو قليلا ريثما يرتب أفكاره وينسقها ٠ ان حرارة اغسطس تثير الاعصاب فكيف يسكت من تتوتر أعصابه دهرا ٠

⑤

عندما أترك المعهد مساء وقبل العودة الى منزلى أجد نفسى أمام اختيارين ، اما ان ألزم البيت أضع فيه ما أشاء وأتحمل بشىء من الضيق لازمة زملائى : « هذا رجل انتهى يجب ترتيبه ضمن الوثائق القديمة » أو أن أمر بالمقهى أجلس ساعة قد تطول مع الزملاء ٠ ولما كنت دائما متوتر الاعصاب كنت أمر بالمقهى لاغير الاتجاه نحو البيت ، كان اذن لا بد من المقهى :

ـ ذهبت ديمقراطية التعليم

ـ البرامج متأخرة غير مستجيبة لمتطلبات التلاميذ والعصر

ـ يجب مكافحة سياسة الانتقاء ٠

ـ كيف ؟

ـ يجب انجاح أكثر عدد

ـ كيف ؟

ـ يجب تفخيم الاعداد

ـ والمستوى ؟

ـ لا يهم المستوى ٠٠ يجب أن يأكل جميعهم الخبز ٠

ـ والوطـن ؟

ـ 5 مكـــرر ـ

وتزداد أعصابه توترا ٠ ان هذا الرجل فلان بن فلان يشعر حقا أننا نبحث عن أنفسنا وما شك يوما في صدق زملائه لكن تفكيرنا على هذا النحـو وان كان صادقا فهو خاطىء ٠ وعندما سكت هذا الرجل قال الطبيب : كفى ٠ هذه ثرثرة أغسطس بعدها ستهدأ قليلا لكن حتى لا تزورني من جديد أنصحك أن تعيد حياتك ، ابحث عن مهنة أخرى فلتكن فلاحا أو حدادا وحتى ماسح أحذية ونادلا في مقهى ، لم لا ؟

م ـ ب (أوت 1977)

قابس

من أنت ؟

شعر صالح رشدى طاهـر

لا تقولــوا من أنــا من أين جئــت
أنا وهم فى خيــال الغيب صــرت
حملتنــى الريــح فى بيــداء كنــت
وأرادت أن أزور الشعــــر زرت
إننــى فى ذكركـم أحيــا وعشــت
أذكــروني أنتــم إن أنــا رحــت
إنكــم روحــى اذا عشــت ومــت

ص. ر. ط.

مات سندباد

قصة : نافلة ذهب

كان ذلك عندما مر سندباد بقريتنا .. على حذائه مجموعة الاتربة التى اقتلعها فى رحلاته وشعره أشعث مغبر وعيناه صور فوتغرافية بالالوان ..

رأيته يتجول بقريتنا والناس حوله يتهامسون فطلبت منه أن أصاحبه فى رحلته المقبلة . قبل سندباد طلبى بشىء من السرعة وعدم الاكتراث وانطلقنا معا نجوب الارض ، هدفنا الترحال والترحال لا غير .

كان كثير الصمت ، وكنت كثيرة السؤال . سألته ذات مرة : هل تحصلت على شىء من رحلاتك ؟

أجابنى سندباد : لم أكن أنوى الحصول على شىء قط .

قلت : لم أسألك عن نيتك ، وانما عما تحصلت عليه .

اغتاظ سندباد ورأيت الغضب يصرخ فى وجهه .

ثم قال لى آمرا : لا تكثرى من الاسئلة كثرة الاسئلة تقلق راحتى . لذلك أرجوك أن لا تعودى الى السؤال !

ولكنى تجاهلته وعدت أسأل من جديد .

ـ لماذا تهرب دائما ؟

رأيت الدهشة فى عينيه وأجاب :

ـ أنا ؟ ومم أهرب ؟

قلت : ليس لك مكان تستقر فيه ، أنت لا تمكث فى مكان الا لتتركه من بعد و ..

فقاطعني حانقـا :

ـ ما هذا الهذيان ؟ انى انسان أعشق السفر والترحال ٠

قلت مصرة : ولكن ذلك كثير ٠ انك كثير الترحال فلكأنك تخاف من شيء فتهرب منه فماذا تخشى يا سندباد ؟

سكت صاحبي وسكت ٠ ثم نهض واتجه نحو جرابه وقال كأنـه يخـاطب نفسه : ليتني لم أقبل مصاحبتك !

أيقنت أنى ولجت باب الحقيقة وأن صاحبي حقا يشكو شيئا ٠

أشار الى فنهضت وتبعتـه على الطريـق واحسـاس بالفرحـة والحـزن يتملكني ٠٠ سكنت ٠٠ وتابعت السير الى جانبه أضرب صدر الارض بأقدام متطلعة وأنظر الى الدنيا حولى بعينين متسعتين ٠٠

كنا فى مكان يشبه شيئا ما قريتنا وكنت الى شعور بالحزن جد شديـد ٠٠ تأملت سندباد بل استرقت النظـر اليـه ٠٠ ففوجئت بكبـر سنـه وترهـل جسمه ٠٠ رأيته يسير مطرقا وكأن أكياسا من الرمل تثقل كتفيه ٠٠

قلت : حكمت على نفسك بالنفى !٠٠

تباعدت المدينة فى غياب من دخان يتأفف وبسهاد يخامره القلق ٠٠ تباعدت المدينة ٠٠ وانكمشت العمارات تلتحف السماء ٠٠ واخترق الظلمة نور بـاهت ينبعث من فوانيس الليل ويلطخ الارض بحلقات مقمرة ٠٠

ـ لم يقل شيئا ٠٠

قلت : أنت تبحث عن أشياء تجهلها وسوف لن تحصل عليها ٠٠

تلك الصحراء المغبرة ، كثبانها الرملية تتلظى تحت الشمس فتتألق فيهـا ألف حجارة ٠٠ وعيون وجفة تمسح الافـق والسراب ممتـد هنـاك ٠٠ حيث واحة نخيل وارفة الظلال ، مخضرة الاطراف ، ندية الاقدام ، ماؤها زلال يريح النفـوس ٠٠

ـ لم يقـل شيئا ٠٠

قلت : لو بحثت قربك عن نفس الاشياء لوجدتها بسهولة الحلم ٠٠

ترفق ذراعي وانظر الى حيث تضع قدميك المتعبتين ، انظر حيث تمشـى والى أين تمشى ٠٠ ان الارض تهديك ترابها وتحلم بك ربيعا يوشح صدرهـا ويجعل من كل رقعة فيها ، مأنسا للتائهين ٠٠

ـ لم يقل شيئـا ٠٠

ـ ولم يقل شيئـا ٠٠

ـ ولن يقول شيئـا !٠٠

الصمت لفائف من عشب يداعبها النسيم ٠٠ وحزنى سحابة لا تمطر ٠٠

الحزن غرفة أسكنها ، تلفنى ، أحملها على كتفى وتضمنى بين جدرانها ٠٠
قلت : أنا حزينة من أجلك !

انتفض سندباد ٠ رأيت شعر رأسه قبة سوداء تعلو وتعلو ، نظر الى طويلا فكدت أندم عما قلته ، ولكنه سألنى :

أحزينة أنت ؟

قلت : عرفت الحزن وعرفنى ٠ تزوجته وتزوجنى ! سكت صاحبى وسكت٠

لم أعد أقدر على السؤال ٠ صمته خدر فى حاجتى الى ذلك ، شعرت بـأن الرحلة توقفت عند هذا الصمت ٠٠ وكالموجة تنكسر عند الصخور وتعود الى الوراء ، شعرت بأنى أنكسر عند صمته فأتقهقر الى الوراء ٠٠

قلت : هروبك غير منطقى ، وترحالك بسيكولوجى ٠٠ ترحـال فى حلقـة مفرغة ٠٠ لم أكن أترقب منه جوابا ٠٠ ظل صامتا ٠٠ كان رأسا ككل الرؤوس تتلقفه العواصف وتجتاحه الانواء ٠٠

لم يعد سندباد طفولتى ، تذهلنى اكتشافاته ويحملنى بخيـاله الى بـلاد الواق الواق ٠ والى آفـاق تشتاقها العيـون ٠٠ لقد انتزعنـى من طفولتـى ورمانى فى صراع وجـودى مبهم صعب المـراس ٠٠ بدأت الرحلـة فى سـن الطفولة واذا بالكهولة تغمرنى سريعا ٠٠ التفت اليه ٠٠ كان ساكنا كالحجر ، باردا كالكلس ، بعيدا كطفولتى ٠٠

وظهرت الحقيقة مع اصفرار وجهه ، وغيـاب الصور مـن عينيه ٠٠ تيقنت منها ، نطقت بها وكأنى أسلخ من جلدى ٠٠ قلتها أخيرا : لقد مات سندباد ! لقد مـات سندبـاد !

★ ★ ★

وعندما عدت الى قريتنا كانت فى عينى صورة واحدة غمست كل الصـور الاخرى وتفتحت بين جفونى كأقحوانة يانعة ٠٠ أقحوانة ٠٠

كانت تذبل حينما أبكى ، وترفوف حينما أبتسم ٠٠

ز٠ ذ٠

مطالعات



« مي صايغ »

ديوان جديد

ومرحلة جديدة

بقلم : نزيه أبونضال

لاننا مطرودون من الـوطن ، ومطاردون بـه ..
ولان بعض الوطن يشتاق الى بعضه الآخـر ..
« سوف أصيح أحبك .. ما أقربنا .. ما أبعدنا »
بين البحر وبين عيـوني .. نهـر دمـاء » (1)

تكمن معرفة الشعر الفلسطيني المعاصر في اكتشاف تلك العلاقة الخاصة والدموية بين الشاعر والارض .. وهذه العلاقة ، تكاد تكون الجسر الوحيد الذى تعبر عليه حركة الشعر الفلسطيني . مما يصبغ هذا الشعر بنوع متميز من الحنين القاسي .. وبالحاح الاستشهاد للوصول والتلاقي . غيـر أن تجـربة الـدم اليومية تعلم ايضا ان عشق الشهيد وحده لا يحقق وصلا .. فالـدرب مـلىء بالالغام ووضوح الرؤيا شرط لسلامة العبور .. ومن هنـا يكتسب الشعر الفلسطيني بعدا جديدا يتجاوز حالات الوجد والتحريض باتجاه آفاق الكشف والبشـارة .

ديوان « مـى صـايغ » الثالث « ع ن الدموع والفرح الآتى » يمثل نموذجا متقدما للشعر الفلسطينى المقاتل فى مضامينه وفى اشكاله الفنيـة ٠٠ وفى التعبير عن خصوصية الشعر الفلسطينى وعلاقته الصوفية الواعية بالوطن ٠

رحلة « مى صايغ » الشعرية بين « اكليل الشوك » (2) و « الفرح الآتى » حققت صعودا فعليا فى مراتب الوجد الصوفى للالتقاء بوجه الوطن ٠٠ ولان الوطن بخيل فهو لا يمنح رؤياه الا لمن امتلأت قلوبهم بـوعي الايمـان الحـق بالوصول ٠٠ أولئـك هـم المتحـازون انيـه حتى النهـاية ولهـذا تهتـف « مـى صايـغ » :

« يقتلنى جرحى
حين يصير حنين الارض حيادا »

ولان الجرح لا يملـك الا ان ينتهى ٠٠ ولان الجـرح هـو جـرح الفقـراء المنحازين تقول :

« ومنذ انتمى الجرح منا لارض القتال
سنوقف طبخ الحصى
فهذا زمان التفاصيل والفرز
هذا زمان الجياع »

تعرف « مى » انه « أهون أن يدخل جمل فى ثقب الابرة من أن يدخل غنى أبواب الجنة » ولهذا نراها توجه نداءها الى الابناء الحقيقيين للارض المفقودة ٠٠ للوطن الجنة :

« تعالوا ٠٠ وضموا بنادقكم
أيها التائهون
تعالوا ألا أيها الجائعون
تعالوا ألا أيها الساخطون »

وفى « زمان الفرز » فلتتسع « الهوة الفاصلة » بين الفقراء والاغنياء ٠٠ فلكل سلاحه وطريقه :

« فانا نغادركم نحو باب الخليل ٠٠
ونحو الجليل

وانا نغادركم الى جبهة الشعب »

« مى صايغ » فى ديوانها الجديد تحقق انتقالا نوعيا ، تغادر فيه على صعيد المضمون تهاويم الفكر القومى الذى ترك بصماته على ديوانها الاول « اكليل الشوك » كما تغادر فيه على صعيد الشكل ذلك الاستغراق (الادونيسى) فى لعبة الرموز الدينية واقتحاماتها المتعسفة لبناء القصيدة ٠

وعلى صعيد الشكل ايضا حققت « مى صايغ » فى « عن الدموع والفرح الآتى » انسجاما متقدما بين الشكل والمضمون هذا الانسجام الذى ظهر ممثلا فى ديوانها الثانى « قصائد حب لأسم مطارد » (3) حيث المضمون الثورى لقصائد الديوان يتقدم بخطوات واضحة عن الشكل الفنى ٠

لا تكتفى « مى صايغ » وهى تحقق تجاوزها الفكرى والاجتماعى باعلان انتمائها الى « جبهة الشعب والجياع والسلاح » وانما تدعو الى « الفرز » وتوسيع « الهوة الفاصلة » بين الجياع وبين المتخمين :

« فهذا زمان التفاصيل والفرز

هذا زمان الجياع

تعالوا نضم البنادق انى أحلل دم الامير »

وفى لحظة الكشف والاشراق حيث القلب ملىء بتجربة الدم وحين تمس الساعة احفر فوق عروقك ايها الوطن وجهى ٠٠٠

« احفر ذكرى جوعى ، يأسى ٠٠

ذكرى الرعب ،

احدد خطا بين الباعة والشهداء »

وأعرف أن الخلاص يجىء حين « أتشبث بالاقسام وبالبؤساء » أن امتلاك الوعى الثورى الذى يسلخنا عن طبقة لا يؤدى فقط الى انتمائنا الى طبقة جديدة وانما يحقق وحدة انتمائنا النضالى للوطن وللامة وللعالم٠٠٠ وهذه المستويات الثلاثة تتجسد فى معظم قصائد الديوان تعبيرا عن وحدة فكرية متقدمة تضبط ايقاعات المضمون عبر رؤية سياسية ونضالية تحدد اتجاه مؤشر السهم دائما الى الامام ٠

* * *

اذا كانت احدى مهمات الشاعر الثورى أن يشحن وجدان شعبه بحتمية النصر فأن تناول هذه الحتمية على المستوى الفنى والشعرى يأخذ طابعا مختلفا هو مزيج من التحريض و « القدرية » التى لا ترد ٠ فالموت الفلسطينى من أجل الوطن موت مستحيل بل هو بعث متجدد للحياة ٠٠٠ والنصر يقف فوق الشك والحوار ٠

« الموت » هو الخيار الوحيد امام الفلسطينى ، حتى يكاد يقول أنا أموت اذن أنا موجود ٠٠٠

« ينسانى العالم لا يذكرنى الا حين أموت
وحين أريد الموت »

غير أن من أراد الموت من أجل الوطن لا يموت :

« يهدر دمى فى الساحات
أنا المتجلى بعد الصلب »

والمصلوب يطلع « من فجوات الموت ٠٠ أنا السكين الفصح ٠٠ »

« وفى ايلول الاردن ورغم
رائحة الدم الايلولية
يطفو فى عين شهيد
حلم واعد »

وأيضا ٠٠٠

« وحين وسدوه والرمال تفتح الذراع
وفى جبينه لم تغرب الشموس
بأن فى عيونه اخضرار »

وفى كل عام وفى عيد الشهداء تتجدد الحياة :

« وكان المخيم يجمع زهرا وشعرا
وتحتفل الامهات الحبالى بعيد الشهيد »

فيكون البعث والتجدد :

« ويصبح كل الرماد حريقا على جميرة اليوم »
« وتمشى الشواهد فوق السلاسل

فوق الجراح
وتزرع عمرا على كل دار »

ولان الموت الفلسطينى جليل وعادى ... وهو جليل لانه عادى ... ولان الوطن الفلسطينى « يرفع الموت شارة » كما « يرفع النصر شارة » فليس غريبا ان تستقبل أم الشهيد ولدها بالزغاريد .. وليس غريبا أن يروى الصحاب « نكات الشهيد » .

« فليس سوانا يروم الخطر
ولا يضع الموت فى آخر السطر نقطة » .

* * *

يكاد المتلقى لبعض مقاطع الديوان التى تتحدث عن الوجع الفلسطينى وعن البطولة الفلسطينية أن يخرج بانطباع عن استغراق فلسطينى مغلق لدى الشاعرة يصل الى حدود التعصب الاقليمى ، الا أن من امتلك رؤية الطريق الصحيح للوصول الى الوطن ، بالانحياز الكلى للمنحازين الى الوطن حتى النهاية لا يمكن أن يضل عن رؤية الافق الفلسطينى المفتوح على الدنيا وعلى الثوار وعن رؤية العلاقة الجدلية بين النضال الفلسطينى والعربى والعالمى .

وفى قصيدتها « الاعدام » تتحدث « مى صايغ » عن استشهاد المناضل « عبد الخالق محجوب » فى الخرطوم فيمتزج الجرح العربى بالجرح الفلسطينى فى « دبين » حيث واجهت قوات الثورة مجزرة الاحراش ، كما يلتقى « عبد الخالق » بالمقاتل الشهيد « عودة بدوية » الذى واجه حكم الاعدام فى عمان وفى نفس الشهر الذى اعدم فيه محجوب :

« صار للانسان زهو الابنوس »
« والتقى اللونان فى جلدى ... عذوية
وعروبة »
« صارت المنجا الصنوبر »
« عرق الثوار انصب على امواج الاردن ، النيل .. »
« ــ ويح القاتل
لم يشهد كيف انزرعت لحظة عمر
فى اعماق الحزن (العامل)

لم يشهد كيف ارتد عويل الارض
وصار مشاتل
ـ افرخ فى باحات منازل
ستظل تقاتل
تنصب للجلاد على اهداب الخرطوم مقاصل
فتلوح حطتها (دبين)
وتظل تقاتل »

البعد العروبى فى قصيد « الاعدام » كما يلاحظ لا يمت بصلة لتهاويم الفكر القومى التجميعى ، فالعلاقة هنا بالغة الدلالة والوضوح حيث تنهض الصلة بشكل محدد بين نضال الطبقة العاملة السودانية (الحـزن العـامل) وبين الكفاح الوطنى المسلح الذى تخوضه الثروة الفلسطينية حيث يرمز لها بالحطة التى تلوح فى دبين الاحراش ، وفى قصيدتها « الانتماء فى الزمن الفلسطينى الخشن » تخطوه « تخطوه « مى صايغ » خطوات الى الامام فى تبيان وحدة النضال العربى :

« وتنشق فى لغة البحر يقظة
وتمتد جسرا على (نجمة الدم) (4)
بين المغازى (5) وعمان للنيل حتى الفرات
لعينيك تنفجر الواحة الجامدة
ويصبح كل الرماد حريقا على جمر اليوم
عرسا على غصن جميزة والدة
وتصبح كل الاماسى كما حضن أم
تلملم عصفورة ريشها
وتنقش اسماءهم فى جذوع الشجر
ويقترب البحر
يهمى رذاذ الضياء على الثورة الواحدة »

ولان النضال الوطنى الفلسطينى لا ينفصل عن النضال الواحد على مستوى الوطن العربى فهو ايضاً لا ينفصل عن النضـال العـالمى . فالعـدو واحـد

والنضال واحد :

« فى أحذية العسكر سر لا يعرفه
غير تراب شطوط البحر الابيض
ولهاث الماء على دلتا الميكونج »
فأنا طفل النابالم
يجرب فى البيت الابيض تقرير لجان الابحاث
أتدحرج فوق حضارة واصير حدث العصر
على الصفحات
يعنينى تاريخ العالم
أتشكل فى ظل رصاص العالم

ويكون أن يأتى الخلاص :

« حين يطل العالم من ثقب التنشين
ومن عينيك ..
يدق الفجر على ابواب الافق
يلون بالليمون ربيعك والحناء »

هكذا يرتفع الصوت الفلسطينى بالدعوة للثورة العربية الواحدة وهو يحتل موقعه فى خندق قتال واحد على امتداد العالم . اضافة الى امتداد الرؤية الافقية على صعيد (الجغرافيا) فان شعر « مى صايغ » يتميز بالرؤية العمودية على صعيد (التاريخ) أيضا .. إن تزاوج الرؤية التاريخية بالرؤية النضالية لعالمنا المعاصر شرط أساسى لولادة الشعر العظيم .

الشكل الفنى والتوصيل :

اذا كان الشعر وسيلة لفهم الحياة وتغييرها كما يقول « فيشر » فى تعريفه للفن ، فان تحقيق ذلك شعرا يبدأ بشرطين :

الاول : جمالية الشعر الفنية .

الثانى : وصول هذا الشعر الى اوسع قطاع من المتلقين .

لا نريد هنا ان نفصل بين مضمون الشعر وشكله الفني ودرجة توصيله ، لكننا نود التوقف امام نقطتين بارزتين في ديوان « مي صايغ » ترتبطان بالجانب الفني وبأسلوب التوصيل :

النقطة الاولى : استخدام التراث ·

النقطة الثانية : الاهتمام بموسيقى الشعر وقوافيه ·

التــــــراث :

لا شك أن الوجدان الشعبي الفلسطيني والعربي ملىء بآلاف الحكايات والقصص الدينية والتاريخية ، ولا شك ايضا ان التعامل الشعري مع هذا التراث بالتحديد وليس بالأساطير الغربية (اليونانية والرومانية) البعيدة عن وجدان الناس ـ يحقق درجة عالية من التأثير والوصول ·

في « عن الدموع والفرح الآتي » حققت « مي صايغ » درجة متقدمة في استخدام هذا التراث والتعامل الشعري معه بأسلوب يحقق اغراض الشعر الفلسطيني المقاتل في الوصول والتأثير والتغيير · يتراوح قاموس « مي » التراث بين الحكاية الشعبية وقصصها واساطيرها وبين التراث الديني المسيحي والاسلامي ، وبين التراث التاريخي بدلالاته المختلفة كذلك تعتمد « مي صايغ » على التضمينات الشعرية الكلاسيكية والشعبية لنفس الغرض· وفي رصدنا لهذه الاستشهادات نجد « مي صايغ » تستخدم :

السندباد ·· مرجان ·· المسيح ·· سدوم ·· بطرس ·· بيلاطس البنطي ·· يوحنا المعمدان ·· ابريق الزيت ·· الصليب·· نجمة المجوس·· عمر بن الخطاب ·· مسيلمة الكذاب ·· العنقاء ·· التتار ·· قارىء الرمل ·· الروم ·· الموالي ·· قداس الاحد ·· القربان ·· الناصري ·· الحلول ·· الاسماء الحسنى ·· سالومي ·· الحجاج ·· أمية ·· المزامير ·· الصلب ·· الفصح ··

هذه الرموز والدلالات التراثية حين توظفها « مي صايغ » شعريا لا تتعامل معها بحياد وانطلاقا من وضعها الساكن ، وانما هي تستغل وجودها ودلالاتها في وجدان الناس وتعمل على تثبيت الجوانب الايجابية منها ، كما تعمد لاحداث تحويلات في معانيها ودلالاتها بما يخدم مضمون القصيدة واتجاهها النفسي·

فعبد الخالق محجوب ، يصبح بطلا شعبيا تحكيه الجدات كما تروى قصص « السندباد » وهو ايضا « مرجان » الذى يطفح « بالطيب والوداد » و « مرجان الودود » الطيب الصافى كعين النبع :

« صار اليوم مارد »

تراثنا لم يسجل بطوله لاسود عدا عنترة ٠٠ والاسود دائما هو مرجان الطيب لكنه بعبد الخالف محجوب صار ماردا ٠٠

وحين تتناول قصة عمر بن الخطاب مع المرأة العربية التى تطبخ الحصى لاولادها كي يناموا تعلن :

« ومنذ انتمى الجرح منا لارض القتال
سنوقف طبخ الحصى »

لم تعد قصة طبخ الحصى هنا دلالة على الجوع وتفقد الخليفة أو الملك لشؤون الرعية كطريق للخلاص من الجوع ٠٠ القتال هو الخلاص فهذا « زمان الجياع » الذى يحلل فيه « دم الامير » كما تقول مى ٠٠

فى قصيدة « اصحاح الاحد الدامى » التى تتحدث عن مجزرة عين الرمانة المشهورة فى بيروت تلجأ « مى صايغ » الى تضمينات دينية مسيحية متعددة لأنها تريد الوصول الى قطاع طائفى عريق فى لبنان يخضع لتأثيرات طائفية حادة ومضللة ، فتسعى للدخول الى عالم هؤلاء بأسلحتهم نفسها ولكن باستخدام مختلف :

« ودمى يراق اليوم عنكم
ودمى يراق اليوم عن أهل الخطايا
فاشربوا يا أهل موأب الجديدة
ينبت الشجر الشظايا »

ثم تلجأ بعد ذلك الى عملية تصوير شعرى لقداس الاحد الذى صلى فيه « الجميل » فى عين الرمانة :

« يبدأ القداس
هذا كاسنا
ليس نبيذا

يصيـر دمـا ،
« هللويـا ·· هللويـا
كان ربى يصنع اليوم الذبيحة
لم أكن الا حلول الروح
كانـوا فى كنـائسهم
وفى طرقـاتهم
هـدروا دمـائى »

فى مقابل هذا المشهد الدموى تنتقل الى مقارنة نقيضه لخطوات الفدائى داخل فلسطين ··

« كنت اسرى فى شرايين العواصف
كنت ادنى آخر الخطوات من درب المدينة
كنت آتى (سافوى) الخيال الجامح المنسوج
حتى المـوج »

ولهذا يأتى المسيح المقاتل ليطرد الصيارفة والقتلة من الهيكل :

« كان جرح الناصرى ينز خلا
كان جرح الناصر ينز خلا
·····
·····
كان صوت الناصرى
أجـيء سيفـا »

* * *

اضافة الى هذه الاستخدامات والتضمينات التراثية تلجأ « مـى صايـغ » للتعامل مع جانب آخر من التراث . وهو التراث الشعرى ، وفى هذا المجال يتم التعامل مع الاستشهادات الشعرية بتضمينها لجسم القصيدة تقولها مثلا :

« طلت البارودة والسبع ما طل
يا بوز البارودة من الندى مبتل »

الا انها بعد هذا التضمين تقول مباشرة :

« ويطـل »

وتقولها أيضا :

« أمر وما ضيعتنى »

ثم تضيف :

« وتقترب الارض من حدقات العيون »

أو تلجأ الى استخدام النغم والاسلوب الشعبى فى الاغانى المعروفة مستخدمة مطالع هذه الاغنيات ثم تضيف لها كلمات جديدة تقولها :

« يا ظريف الطول يا طول النخل
يا طايح عمان ببيوت الاهل
والثورة فى الارض عم تشتعل
فى عيون الشعب ينبت نصرنا »

* * *

الموسيقى والقافية : لقد اعتادت الاذن الموسيقية العربية خلال اكثر من ألف عام على أوزان موسيقية معروفة فى القصيدة العربية ، وكذلك على قافية واحدة أو مشتركة تحدث لدى المتلقى انسجاما نغميا معينا ..

فى تقديرى أن الشاعر الملتزم والحريص على ايصال شعره الى اوسع القطاعات لا بد أن يراعى ضرورات التوفيق بين شروط الشعر الحديث من حيث موسيقاه الداخلية وعدم الاهتمام بالقوافى المشتركة فى قصيدته ، وبين اعتياد الاذن العربية على الموسيقى الخارجية والقوافى المشتركة فمثل هذا التوفيق يحافظ على درجة معقولة من فنية الشعر من جهة وعلى توصيله للآخرين من جهة أخرى ، فالى اى حد نجحت « مى صايغ » فى تحقيق ذلك ؟

الملاحظة الاولية على قصائد الديوان تشير الى ان هناك درجة واضحة من الحرص على اختيار الاوزان ذات الطبيعة الموسيقية الواضحة ، كما تشير بشكل اوضح الى درجة انتباه عالية فى بناء القصيدة باعتماد قوافى مشتركة لها مما يحقق عذوبة موسيقية متقدمة تساعد على الوصول الى آذان المتلقين ونفوسهم .

تتألف قصيدتها الاولى « عودة الطائر الجريح » من ستة مقاطع شعرية تتوزعها القوافى على الترتيب التالى :

المقطع الاول : الفجوة ـ الجرف ـ الحلوة ـ الصيف ـ غزة ـ الضيف .

المقطع الثانى : الصيف ـ الاسمر ـ السكر ـ عليها ـ الاشياء ـ اليها ـ الخوف ـ الباب ـ النهر ـ غناها .

المقطع الثالث : القرب ـ حرقة ـ المر ـ البحر ـ الزرقة ـ الطارق ـ الصيف .

المقطع الرابع : بسمة ـ الامس ـ الود ـ غناها ـ الود ـ للجارة ـ للحارة ـ الضيف ·

المقطع الخامس : الراعف ـ السيف ـ الباسق ـ النكهة ـ العاشق ـ اللوعة ·

المقطع السادس : وطنى ـ الاشياء ـ الزاحف ـ السجناء ـ سماء وطنى ـ القضبان ـ الانسان ـ العشرين ـ النازف ·

يبدو واضحا هنا أن « مى صايغ » تتعمد القافية ، والتعمد هنا بالمعنى الايجابى لانه يستهدف كما قلنا التوصيل ونلاحظ ايضا عند استعراض قوافى القصيدة أن القوافى المشتركة لا تتكرر فى المقطع الواحد فقط ولكنها تمتد الى بقية المقاطع كما فى روى ، الجرف ·· الضيف فى المقطع الاول حيث نجده يتكرر فى بداية ومنتصف المقطع الثانى ، وفى نهاية المقطعين الثالث والرابع · مما يعطى للقصيدة نسيجا نغميا موحدا وانسجاما موسيقيا متكاملا لدى المتلقى ، ويمكن ملاحظة ذلك أيضا على بقية قوافى المقاطع المختلفة، وكذلك على بقية قصائد الديوان بنسب مختلفة ·

إن ديوان » مى صايغ » « عن الدموع والفرح الآتى » يدخل عالم الشعر الفلسطينى المقاتل من اوسع ابوابه كقيمة نضالية وفنية معا ·

---

(1) « عن الدموع والفرح الآتى » مى صايغ · وزارة الاعلام ـ بغداد ·

(*) جميع المقاطع الشعرية بين الاقواس من الديوان ·

(2) « اكليل الشوك » · دار الطليعة ـ بيروت ·

(3) « قصائد حب لاسم مطارد » مى صايغ · دار العودة ـ بيروت ·

(4) نجمة البحر ـ غزة ·

(5) المغازى ـ مخيم للاجئين فى غزة ·

(6) عملية تل أبيب ·

أصداء الفكر

• ادباء من تونس

تحت هذا العنوان نشرت مجلة « الاخاء » الايرانية فى عددها 494 • ص 27 لشهر جويلية 1977 مقالا يتحدث فيه صاحبه عن الاستاذ محمد مزالي يبدؤه بقوله : « قبل الكتابة عنه بقيت خمسة عشر يوما فى صراع داخلي : هل الاستاذ محمد مزالى أديب أو مفكر ؟ » وحاول أن يقنع نفسه بأن كل أديب مفكر • وليس كل مفكر أديب • وبما ان المحاولة كانت فى شكل حكم غير معلل مال عنه الى تقديم نماذج من اعمال مرب فاضل فبدأ بكلمة عن مولده ودراساته والمناصب التى تقلب فيها ثم تعرض الى مواقفه من قضايا العصر الانسانية المصيرية ودفاعه عنها بايمان مطلق • واحتضانه لحماة الحق فى مجلة « الفكر » • ورأى صاحب المقال أن أهم قضية واجهها صاحب « الفكر » على المستوى القومي وخارج ذلك المستوى هى قضية « التعريب » التى ما تزال مطروحة بشكل حاد لانها تضايق جهات متعددة ولا يمكن ان تكون سيادتنا كاملة ما لم يتم التعريب بكامل اجهزة الادارة التونسية وما لم تدرس العلوم الصحيحة وغيرها باللغة العربية • والعربية ليست عاجزة عن استيعاب مفاهيم وتقنيات العصر وانما اطارنا الجاهز تم طبخه فى مدارس أروبية فتعذر عليه قبول فكرة التعريب المرحلية • وأمام هذا الجهاز نجد الاستاذ محمد مزالى يقف صامدا يرد على المشاغبين بقوله : إن التعريب ركن اساسي من التونسة التى هى روح قبل كل شيء وارادة قومية (ص 18 كتاب : دراسات نشر الشركة التونسية للتوزيع 1974)

ثم يقف بنا صاحب المقال على جانب آخر من جوانب هذه الشخصية التونسية تتضح فيه مواقف الرجل المفكر من قضية الديموقراطية حين يقول « الديموقراطية فى جوهرها عقد مبرم بين جميع افراد المجتمع ــ الاحرار يرومون تأسيس هيئة اجتماعية متحضرة ــ انما تستمد قوتها وسلطانهما منه (ص : 76 من كتاب : الديموقراطية الصادر سنة 1955) لا سنة 1956 كما ذكر صاحب المقال وينتهى المقال بتعداد مؤلفات الاستاذ محمد مزالى ولا يمكن

ان نختم التعليق دون أن نشير الى تسرب أول : يتمثل فى خطأ ـ ولعله خطأ مطبعى ـ فى ادخال أداة التعريف (ال) على اسم مزالى والمعرفة لا تحتاج لتعريف ثان . اما التسرب الثانى فيتمثل فى تسلل صورة لا هى لصاحب المقال ولا هى للاستاذ محمد مزالى ! فمن أى فجوة تفضلت صورة الاستاذ محمد الصالح الجابرى بالدخول الى هنا ؟ وقد كتب تحتها اسم صاحب المقال : الاستاذ العيد القماطى ؟؟

فان كان هذا الخطأ على مستوى الصورة به يختلط الحابل بالنابل فانـه لا يختلط علينا وانما على غيرنا .

◆ فى القطر التونسى : مؤشرات نحو بناء ثقافة عربية

تحت هذا العنوان طلعت علينا صحيفة « الثـورة » العـراقية فى عددهـا الصادر بتاريخ 4 اوت 1977 ضمن صفحتها الثقافية بمقال راسلها بـه مـن تونس السيد حسب الله يحيى علق عليه الزميل محمد أحمد القابسى فى صفحة « ادب وثقافة » بصحيفة « بلادى » الاسبوعية ص : 10 بتاريخ 22 / 8 / 77 فى ركن حديث بمناسبة تحت عنوان «لماذا يأتينا التشـويـه مـن العراق ؟ » نقتطف منه ما يلى « اما (الفكر) يا سيدى فان الذى أصدرهـا انما هو رجل تحمل ضغوط الحال والزمان وسعى بوسائله الخاصة الى أن تظل مجلته منذ اكثر من عشرين سنة عمود أدبنا الفقرى الذى لـولاه لما عرفت الساحة الادبية أسماء أصبحت الآن تغـريك بحضورهـا فتثبتهـا أنت فى نصك »

وهذا كان ردا على الخطأ الذى وقع فيه السيد حسب الله يحيى حـيـن اخبرنا (والخبر يحتمل ...) بالحرف الواحد ... « مجلة (الفكر) التى يصدرها اتحاد الكتاب » .. والحقيقة ان اتحادالكتاب لا صلة مادية له بهـا اذ « الفكر » أسست سنة 1955 قبل أن يبعث اتحاد الكتاب التونسيين (1971) والاستاذ محمد مزالى كان مديرا لها قبل أن يكون رئيسا للاتحاد وهى وليدتـه لحما ودما .. ونسبا وانتسابا ويتمادى « حسب الله » فى مقاله بالحرف الواحد: « تعنى (أى مجلة الفكر) بنشر عدد من القصائد الا أنها لاتشكل علامة متميزة. كونها تقدم نماذج تقليدية فى مضمونها وشكلها » وحتى لا يقال : « وشهـد شاهد من أهلها ... » فلا نرد على هذا الاتهام بل نورد للقارىء الكريم فقرة أخرى من المقال الذى ذكرناه سلفا للزميل القابسى : « أضف الى ذلك أن غاية

(الفكر) الوحيدة لا ان تحتضن اتجاها دون آخر أو مدرسة أدبية دون أخرى وانما تجعل من الشمول هدفا أولا لها فتفتح صفحاتها للشيوخ كما تفتح نفس الصفحات للشباب لذلك تعايش على صفحاتها أكثر من تيار ، وأكثر من اتجاه وان كنت فعلا من قراء « الفكر » ومن المتتبعين لمسيرتها فان مثل هذا القول لا يغيب عنك !! » ٠

« انك يا سيدى تكتب عن ثقافتنا من عليائك ٠ وانك لم تقرأ دفتر واقعنا الثقافى ولا مجلاتنا ولا صحفنا ٠٠٠ ومن الغرابة بمكان ان يرضى زميل لنفسه مثل ما ارتضاه السيد حسب الله يحيى ٠٠ وانه كذلك لمن العجب أن تتحمل صحيفة مثل « الثورة » مسؤولية ما ينشر على اعمدتها دون التثبت والتحرى الشرطين البديهيين للعمل الصحافى ٠

ونحن اذ نؤكد مرة أخرى أن مجلة الفكر ليست مجلة اتحاد الكتاب التونسيين نشكر الشاعر **محمد أحمد القابسى على حماسه الصادق نحو مجلة الفكر** خاصة ونحو الأدب التونسى عامة ٠ ونشكر ايضا مجلة الثورة على اهتمامها بالادب التونسى والتعريف به على صفحاتها ملتمسين لها العذر نظرا الى بعد المسافة وقلة رواج الكتاب والمجلة والصحافة التونسية هناك ٠ وكلنا أمل فى أننا سنذلل هذه الصعوبات بما نشهده من بوادر اللقاء والتواصل بين الادباء والمفكرين للشعبين الشقيقين التونسى والعراقى ٠

• **محاكمة فى الهواء الطلق**

انها المسرحية الجديدة الفائزة فى المسابقة التى نظمتها على مستوى الوطن العربى مؤسسة المسرح الشعبى الكويتى ودار الرأى العام للنشر والصحافة ونحن اذ نهنىء زميلنا الشاعر الشاب عبد الحميد خريف فلا بد أن نستحث حملة الاقلام على التواجد الثقافى المستمر على الساحة العربية حضورا غير محدود حتى تلتحم فكريا اجزاء العالم العربى الالتحام الاكبر ٠٠

• **صدر أخيرا** عن الدار العربية للكتاب « قضايا » تأليف الاستاذ البشير بن سلامه ٠ كما صدر لنفس المؤلف عن مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله : الجزء الاول من كتاب « **النظرية التاريخية فى الكفاح التحريرى التونسى** » ٠

● هل سيصبح العروض فى مستوى الدقة العلمية ؟

من الجزء ينطلق المفكرون اليوم انطلاقا علميا فى البحث عن ماهية الكل وهذه هى الطريق التى يسلكها العلماء لتقصى الحقائق الكونية فى كل مجالات البحث العلمى الذى يجعل منه عصرنا العمودى الفقرى المؤدى الى النتائج الحتمية المدققة رافضا كل التقريبيات فى كل ما هو علم ، واذا سلمنا بأن العروض علم ، فلا بد أن يكون خاضعا الى الضبط العلمى — قانون العصر — وهذا ما لا يمكن للدارس الا أن يلمسه فى كتاب « اللغة العربية ومشاكل الكتابة» للأستاذ البشير بن سلامة الصادر عن الدار التونسية للنشر .. سنة 1971 ولقلة رواج الكتاب التونسى فى الشرق العربى « يا للأسف» يبدو لنا أن الدكتور ابراهيم أنيس لم يطلع عليه عندما وضع بحثه القيم الذى نشره فى العدد الخامس من مجلة « الشعر » يناير 77 (من ص 17 الى ص 25) تحت عنوان « فاعلاتن » الذى حاول فيه ارجاع كل التفاعيل الى فاعلاتن .. وبما أننا نؤمن بسنة التطور لكل حى — والعروض كائن حى .. وما يزال .. رغم محاولة الذين لم يدركوا سر النفس الحى فيه .. فحاولوا خنق أنفاس ذلك الكائن عوض التفكير فى كيفية تطويره .. وترويضه .. وجعله يتقمص من عصرنا الذات المميزة لنا نحن أبناء السرعة المتحركة . والحركة السريعة فى القرن العشرين .

وهذا ما حاول تلخيصه الاستاذ البشير بن سلامة عندما عنون مقاله بنفس العنوان «فاعلاتن» فى العدد وبين ان العروض العربى يجب أن يقاس بصورة أدق علميا وان يترك ما خلقته عبقرية الخليل بن أحمد فى ظروف لم تكن فيها الآلة متطورة . فاستنبط مقاييس تقريبية أدت خدمة كبيرة ولكنها لا يمكن أن تصمد اليوم امام الدقة العلمية .

على كل فاننا نهنىء مجلة « الشعر » على توفقها الى جعل الاقلام العربية تلتقى على صفحاتها وتقارع الرأى بالرأى والحجة بالحجة فى سبيل النهوض بفن هو من أعرق الفنون العربية وأبدعها .

● انعقاد المؤتمر الحادى عشر للأدباء العرب

عندما يكون هذا العدد بين يدى القراء يكون المؤتمر الحادى عشر للأدباء العرب قد أنهى أشغاله بطرابلس/ليبيا وناقش المواضيع الآتية :

1) مكانة اللغة العربية فى الأدب المعاصر

2) مشكلة الأدب المعاصر وعلاقته بالتراث

3) مشكلة المضمون فى الأدب المعاصر (اجتماعيـا وسياسيـا واقتصاديـا وثقافيـا)

5) مشكلة الاشكال الأدبية المستحدثة فى الأدب المعاصر

6) مشكلة الأدب المعاصر والمستقبل

وقد شارك اتحاد الكتاب التونسيين بوفد يضم السادة : محمد العروسي المطوى ، مصطفى الفارسى ، سمير العيادى ، نور الدين صمود ، الميدانى بن صالح ، نور الدين بن بلقاسم ، محمد الشعبونى ، حسن نصر ، محى الدين خريف ، مختار بن جنات ، أحمد الشرفى ٠

ودعا المؤتمر بصورة شخصية السادة : محمود المسعدى، البشير بن سلامة، جعفر ماجد ، ابو القاسم محمد كرو ، ابراهيم شبوح ، محمد المرزوقى ، الجيلانى بلحاج يحيى ، الحبيب الجنحانى ، محمد صالح الجابرى وغيرهم ٠٠

● التحق السيد عبد الواحد إبراهم الذى كان يعمل منذ بضع سنوات سكرتيرا للتحرير بمجلة الفكر ، بمؤسسات عبد الكريم بن عبد الله وكلف بادارة النشر والتوزيع بها ٠ نهنئه على هذه المهمة ونتمنى له النجاح ٠ كما نتمنى أن لا يثنيه عمله الجديد عن الادب ومشاغله ٠

● **فقيد المغرب العربى** : الشاعر الكبير الاستاذ مفدى زكرياء (ابن تومرت) الذى وافاه الاجل المحتوم بتونس فى 17 ــ 8 ــ 77 وقد نقل جثمانه الطاهر على متن طائرة فى حفل توديع خاشع حضرته الأسرة الادبية والوطنية، من تونس ــ الى الجزائر حيث مثواه الاخير بمسقط رأسه ٠

والتحضيرات جارية اليوم بتونس لاقامة أربعينية له وفاء لروحه رحم الله فقيد الشعر العربى فى المغرب العربى ٠

● **الأخـلاء** مجلة جديدة ٠ أدب ٠ ثقافة ٠ تربية ٠ تصـدر عن النـادى الأدبى لدار الشباب والثقافة بمنزل تميم

● **العلم والتعليم** : مجلة شهرية ثقافيـة يديرهـا ويصدرهـا بتـونس الاستاذ احمد الشرفى وقد صدر العدد السابع عشر الذى جاء فى اكثـر مـن أربعين صفحة زاخرا بالمواضيع المختلفة تبحث فى الأدب والحضارة ٠ والتنبؤات الجوية ٠ والتراث ٠ والصناعة ٠